الأسيرة المتحررة
فرح راشد
"الحب يُظهر أجمل ما فينا، ولكن خيباته تُظهر أسوأ ما فينا"
دار
أكاديمية الكاتب
للنشر الإلكتروني

الأسيرة المتحررة

رواية

فرح راشد

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: الأسيرة المتحررة

المؤلف: فرح راشد

تدقيق لغوي: محمد حسن

تنسيق وإخراج داخلي: محمود كمال

تصنيف الكتاب: رواية

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-28-1-260304

التليفون: ٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المقدمة

كلما نظرت إلى المرآة عاد الماضي إلى ذهني.

أرى طفولتي، أتذكر احلامي السابقة، أتذكر ما كنت أتمنى، وأعجب لما أعيشه اليوم، وأسأل حالي: هل أريد العودة إلى الماضي؟

أم أريد الذهاب إلى المستقبل؟

ثم أصمت..

وأقول لمَ لا أتمتع بالحاضر!

أجعل نفسي أسيرة الماضي، ولا أنسى ما مر بي، ولا أتوقف عن التفكير وتخّيل المستقبل.

قررت أن أعيش الحاضر بكل تفاصيله. لا يأخذ الماضي من حاضري ولا يشغلني المستقبل؛ فالماضي لن يعود، والمستقبل لن يأتي قبل الأوان.

قررت أن أكسر المرآة التي تذكرني بنفسي في الماضي، وأنظر إلى مرآة جديدة. أتمتع فيها بذاتي الآن.

(1)

في السادسة صباحاً .....

استيقظت من نومي باكراً كالمعتاد للذهاب لعملي، جلست أتناول وجبة الفطور مع زوجتي. كانت تحاول إقناعي أن أقوم بتوصيلها إلى إحدى صديقاتها بالسيارة، لأنها لا تزال تخشي أن تقود سيارتها.

لم أقم بالموافقة على طلبها لأني كنت أريد أن تتعلم الاعتماد على نفسها، ومن جانب آخر كنت أريد أن أذهب مبكراً إلى عملي كي لا يغضب المدير.

كانت سارة مطيعة فاستطعت إقناعها بأن سبب رفضي الوحيد هو أنني أريدها أن تمتلك القدرة على القيادة وعدم الاحتياج لأحد.

* * *

اقتنعت سارة رغم خوفها الشديد، ودقات قلبها التي بدأت في النبض سريعاً خوفاً من فكرة أن تقود هي السيارة، ولكن لكيلا يغضب زوجها أحمد قررت أن تحاول فعل ذلك.

ذهب أحمد للعمل.. وبعد دقائق قليلة نزلت سارة، وقامت بفتح باب السيارة والجلوس في مقعد السائق، ثم قامت بإمساك عجلة القيادة بيديها الاثنتين، والضغط على المكبَح.

بدأت السيارة في التحرك ببطء شديد، وما إن شعرت سارة بأنها قد تملكت السيطرة على حركة السيارة حتى بدأت في زيادة السرعة شيئاً فشيئاً. ولكن لم تنتبه أن سرعة السيارة المتزايدة، مع عدم إتقانها للقيادة جعلتها تصطدم بأحد الأعمدة التي تقوم بإضاءة الشوارع ليلاً.

فقدت سارة الوعي، وبدأ جبينها في النزيف بسبب اصطدامه في محرك القيادة. مر بعض الوقت حتى مرت سيارة من جانب سيارة سارة. كانت تقودها سيدة في

الثلاثينيات، ومعها ابنها الصغير، نزلت السيدة من سيارتها، وتحركت مسرعة نحو سيارة سارة؛ وما إن وجدتها تنزف والدماء قد ملئت سيارتها وملابسها، حتى قامت بالاتصال بسيارة الإسعاف؛ كي تأتي وتنقل سارة إلى المستشفى.

خلال وقت قصير جاءت سيارة الإسعاف وحملت سارة إلى المستشفى وكان وضعها خطير.

على جانب آخر قامت السيدة التي اتصلت بالإسعاف بفتح هاتف سارة، والاتصال بآخر شخص هاتفته؛ كان زوجها أحمد. أخبرته السيدة بما حدث مع سارة، وأعطته عنوان المستشفى التي توجد بها سارة.

تسارعت دقات قلب أحمد من القلق وهو في الطريق، كان قلبه يؤلمه وعقله يلومه: أنت السبب؛ أنت من فضلت عملك على زوجتك، أنت تعرف أنها تخشي القيادة؛ يا لك من غبي!!

***

عندما وصلتُ إلى المستشفى دخلت مسرعاً أسأل الممرضات عن مكان غرفتها، فأخبرنني أنها في العناية المشددة، ولا يمكنني رؤيتها، فسألت: هل بإمكاني أن أعرف وضعها الحالي؟ أشارت لي إحدى الممرضات إلى أحد الأطباء وقالت: الدكتور حسام بإمكانه إخبارك.

ذهبت وسألته عن حالة زوجتي، قلت له: هناك فتاة في منتصف العشرينات انتقلت منذ قليل إلى المستشفى بسبب حادث سيارة، ما وضعها؟

نظر لي بأسف وقال: الحقيقة وضعها خطير إلى حدٍ ما، هي الآن بالعناية، ولكن لا تقلق. ادعِ لها، هناك حالات كثيرة جاءت إلى المستشفى في حوادث مثل هذه وكتب الله لهم الشفاء.

رغم عدم قيام الطبيب ببث الطمأنينة داخلي؛ ولكن لم أفقد الأمل من شفائها. لا أعرف لماذا، هل لأني أحبها وعقلي يرفض تصديق حدوث مكروه لها؟ أم لأن الطبيب قال إن هناك من كُتب له الشفاء من نفس هذه الحوادث؟ أم ليقيني أن الله لا

يحملنا ما لا طاقة لنا به؟ لكن رغم كل هذه الأسباب وهذا اليقين بأنها سوف تُشفي. ما زال الخوف لم يُنتزع من قلبي.

بعدما انتهيت من حديثي مع الطبيب، وأخبرني بإمكانية النظر إليها من خلف زجاج غرفة العناية. ذهبت لأراها؛ لم أعرفها عندما نظرت إليها، كان وجهها ممتلئ بالجروح ورأسها مغطىَ بلفافة من القماش الأبيض. أصاب قلبي الغصة من رؤيتها في هذا الوضع، وتسللت لعقلي أفكار بفقدها، ولكن سرعان ما انفصل عقلي عن ذلك، وذهب للتفكير في شيء آخر..

والدتها!!!

***

(٢)

والدة سارة

لقد ذهب عن عقلي تماماً أن أقوم بإخبارها عن الحادث. أعتقد أن شعوري بأن هناك احتمال لفراقها هو من أعطي إشارة لعقلي بوجوب رؤية والدتها لها، كان يجب أن يفكر عقلي في هذا منذ بداية الأمر، ولكن لأن والدة زوجتي ليست قريبة منا لم يدرك عقلي الأمر إلا بعد أن زاد الخوف بداخلي أكثر مما سبق.

وأدركت وجوب أن ترى ابنتها؛ فقد تكون هذه المرة الأخيرة.

قمت بمسح دموعي التي تساقطت من عيني بعد رؤية سارة في العناية، وبحثت عن هاتفي في جيوب ملابسي، ولكني لم أجده، فأدركت أني تركته في السيارة. ذهبت لإحضاره والاتصال بوالدة سارة، تفاجأت من سرعة ردها على اتصالي رغم عدم حديثي معها منذ حين. حاولت ضبط أعصابي وأنا احدثها؛ بدأت بإلقاء التحية:

- السلام عليكم خالة نهى، كيف حالك؟

- وعليكم السلام يا أحمد، اشتقت لك، كيف حالك وحال سارة؟ أين هي؟ بجوارك؟ يمكنني أن أحدثها؟ اشتقت لسماع صوتها، من زمن لم تطرب أذني بصوتيكما.

- في الحقيقة يا خالة نهى.. لا أعرف كيف أخبرك ولكن ... سارة... سارة...

- ماذا بك يا بني؟ لماذا يتعثر لسانك هكذا عن الكلام؟ هل هناك شيء سيء لا قدر الله؟ أنتم بخير؟

- لا أعرف كيف أخبرك، لكن سارة عملت حادث بالسيارة و....

لم أكمل حديثي حتى سمعت صوت صراخ عال: نهاااااا نهاااااا

لقد غابت عن الوعي نتيجة الصدمة، وكان بجوارها في ذلك الوقت خالة سارة، الخالة عبير التي أمسكت الهاتف وصرخت في وجهي: ماذا قلت لها جعلها تفقد الوعي؟

لم أنزعج من طريقتها في الحديث وعذرتها، حاولت أن أخبرها بهدوء كل ما حدث مع سارة، وما قاله الطبيب، وأخبرتها بعنوان المستشفى. وعندما استعادت الخالة نهى وعيها أحضرتها الخالة عبير إلى المستشفى لرؤية سارة.

عندما دخلت الخالة نهى إلى المستشفى وكانت مع الخالة عبير، كانت على وشك أن تغيب عن الوعي مرةً أخري، ولكني أسرعت للإمساك بها، وشعرت أن قدمها تعجز عن الحركة؛ فطلبت من أحد الممرضين إحضار كرسي متحرك لها وأن يقوم أحد الأطباء بفحصها لأن حالتها كانت شديدة السوء.

جال في خاطري "من المعقول أن يحدث كل ذلك لها فقط عندما علمت بحادث ابنتها التي لم تكن تراها في الأساس؟!" لكن سرعان ما جاوبني عقلي "بالتأكيد، هي تخاف أن تخسر ابنتها الثانية".

لقد نسيت أمر سلمى أخت سارة المتوفية من سنوات كثيرة.

بالطبع من الصعب أن يفقد أحد كل أبنائه، فمهما بعدت الأم عن ابنائها بالتأكيد قلبها يتألم إذا اصاب أحدهم مكروه. إنه الحب بالفطرة؛ نحزن ونغضب وننزعج من تصرفات أبنائنا، ولكن إذا حاولت قطة صغيرة لمسهم بأظافرها تصبح هذه القطة عدوة لنا. فحب الآباء والأمهات للأبناء غير مشروط، وليس مكتسب مثل حب الأصدقاء لبعضهم؛ بل إنه يُزرع داخل أحشائنا.

يترك الطفل رحم والدته ويترك معه حب لا ينتهي مهما حدث.

قام أحد الأطباء بفحص الخالة نهى بينما كانت هي تهذي وتقول:

- سارة.. سارة.. ابنتي، يا رب، فقدان اثنتين كثير.. يا رب لا تعاقبني مرتين.. لقد اشتد الاختبار عليّ.

حاول الطبيب أن يطمئنها على ابنتها لكي تهدأ، ثم قال لي أنا والخالة عبير إن ما أصابها صدمة عصبية بسبب تلقيها للخبر، وإن الأفضل أن تظل تحت

الملاحظة بعد إعطاءها بعض المهدئات. وإن رؤيتها لسارة وهي بهذا الوضع قد يزيد من تدهور حالتها.

قالت له الخالة عبير:

- حسناً، هل بإمكاني أنا رؤيتها إذن؟

قال:

- ليس هناك مانع، ولكن لوقت قصير.

ذهبت خالة عبير لرؤية سارة في العناية من خلف الزجاج مثلما فعلت أنا.

***

(٣)

الخالة عبير

كنت أقف وأنظر لها، ويدور في عقلي "كيف مرت الأيام وحدث كل هذا؟! لم يرزقني الله بأبناء، لكن كنت أعتبر بنات نهى عوضاً لي، كنت أقرب لهم منها".

بينما هي تذهب إلى عملها، وزوجها يسافر في كل بلدان العالم، كنت أنا من أجلس معهم وأرعاهم. أحضر لهم الطعام، أهتم بواجباتهم، أقوم بغسل ملابسهم وترتيب غرفتهم؛ ليس لأن والدتهم منشغلة في عملها، ولكن لأني أعطيهم الحب والاهتمام الذي أردت إعطاءه لأبنائي. كنت أنا من يحتاج إليهم وإلى حبهم، وأغار من أختي عندما تعود إلى المنزل وتأخذ هذا الحب مني.

والآن وبسبب غبائها هي وزوجها وإهمالهم خسرت ابنتي الكبرى سلمى. وها أنا الآن على وشك خسارة سارة أيضاً دون حتى استطاعتي الحديث معها للمرة الأخيرة.

أنا من قام بتربيتهم، وأنا من يتألم لفراقهم.

أصعب شيء قد يمر به الإنسان هو الفقد من دون الوداع، ذهاب من نحب دون استطاعتنا الحديث معهم للمرة الأخيرة يترك بداخلنا جرح عميق يكبر يوماً بعد يوم. وقتها عقولنا تقول لنا هذا لم يحدث، وأذننا تذكرنا بأننا لم نسمع كلمات الوداع الأخيرة؛ حتى نتيقن من أن ذلك حدث بالفعل. وقلوبنا ترفض هذا النوع من الألم.

ولكن أعيننا هي من تدرك الأمر، عندما ترى أحبابها وهم مفارقين الحياة، تذكرنا دوماً بالنظرة الأخيرة في وجوههم، وشكل جفونهم المغلقة، والقماش الأبيض المحيط بهم.

فكلما رفض العقل والقلب التصديق، يكون من تبكي هي العين؛ لأنها الوحيدة التي تيقنت من حقيقة الفراق.

(٤)

أحمد

بعدما تركتنا الخالة عبير وذهبت لرؤية سارة، وقال الطبيب إن الخالة نهى سوف تبقي في المستشفى هذه الليلة بسبب وضعها، ذهبت أنا إلى المنزل بعدما أدركت أن سارة لن تعود إلى الوعي اليوم. لكني عندما قمت بفتح باب المنزل وجدت نفسي للمرة الأولى منذ أن تزوجت بمفردي.

الحقيقة -في هذا اليوم- عرفت مدى حبي لزوجتي، إنه أكثر بكثير مما ظننت.

بدأت الذكريات تحاوطني من كل مكان، جميع أركان المنزل يوجد بها ذكرى بيني وزوجتي؛ فكرة خسارتها جعلت عيني تنزف الدماء، وقتها تذكرت عندما كان يقول لي أبي إن الرجال لا تبكي، وكانت أمي تأخذني ليلاً بين ذراعيها، وتقول لي ابكِ يا ولدي، أخرج ما بك في البكاء، لا تتركه يمتلئ بداخلك، حتى لا يأتي يوم ويقتلك، أو يقتل أجمل ما بك.

البكاء ليس عيباً؛ العيب هو أن نعتبر الحزن ضعفاً، فنزيد في الكتمان، حتى نصبح مثل الجماد لا نتأثر، الحزن ما يجعلنا ندرك لذة الفرح.

حينما كانت عيني يملؤها الدمع، ويصعّب عليّ الرؤية بوضوح، آثار انتباهي كتاب الصور الموجود على أحد الأرفف.

أمسكت به وبدأت النظر في صفحاته؛ كان به العديد من الصور التي تجمعني بزوجتي منذ كنا في الجامعة، وأنا أشاهد الصور مر في خيالي أول لقاء جمعني بها.

كانت تقف عند أحد بائعي الكتب الموجودين بجوار الجامعة، وتبحث عن كتاب الفيل الأزرق، ولكنها لم تجده، أخرجت الكتاب من حقيبتي وقلت لها: إنه معي وقد انتهيت من قراءته اليوم، بإمكانك أن تأخذيه، فأنا لا أحتاجه الآن.

نظرت لي باندهاش وقالت: حقاً؟ لن تحتاج قراءته مرة اخرى أو الاحتفاظ به؟

- لا، لقد قرأته، وأنا لا أنسي ما أقرأُه كي أعود لقراءته مرة أخري، واحتفاظي به لن يُفيدني بشيء، يمكنك أنتِ أن تأخذيه وتستمتعي بقراءته، سأكون سعيداً وقتها أكثر من بقاؤه في المكتبة.

- حسناً، سوف آخذهُ، كم ثمنه إذن؟

- لا شيء

- كيف؟ ألم تشترِه بالمال؟

- بلى.

- حسناً، كم دفعت؟

- لن أخبرك.

- ؟!!

- يمكنك أن تعتبريه هدية.

- لكني لا أعرفك كي أقبل منك هدية.

- حسناً، الآن أصبحتِ تعرفينني

نظرت لي وهي تحاول أن تخفي ابتسامتها:

- أي كتاب سوف تشتري؟

أجبتها: سوف أشتري كتاب أرض زيكولا.

- جميل هذا الكتاب، أعتقد أنه سوف يعجبك، هل قمت بشرائه بعد؟

- لا، سوف آخذه الآن.

- عم محمد، سوف آخذ أرض زيكولا

عم محمد: تفضلي يا سارة.

التفتت سارة إلى أحمد وأعطته الكتاب:

- تفضل

- ما هذا؟

- أنت أعطيتني الفيل الأزرق، والآن أنا أعطيك أرض زيكولا.

- لكني لا أعرفك كي أقبل منكِ هدية؟!

- الآن أصبحت تعرفني، هاها.

- هاهاها، حسناً بسبب عم محمد عرفت أن اسمك سارة، أنتِ في جامعة القاهرة

- نعم، وأنت؟

- وأنا أيضاً في جامعة القاهرة في العام الأخير بكلية التجارة، ماذا عنك؟

- أنا في العام قبل الأخير بكلية التربية.

- سعدت بتعرفي إليك.

- وأنا أيضاً، سوف أذهب الآن، وداعاً

- وداعاً.. لكنك لم تسألي عن اسمي؟

- ما هو؟

-أحمد.

في اليوم التالي.. ذهبت إلى المستشفى لأعرف ما توصل له الأطباء في حالة سارة، وأيضا لرؤية الخالة نهى ومعرفة وضعها الحالي.

عندما وصلت إلى المستشفى قابلت الطبيب الذي يتابع حالة سارة، وقد أخبرني بعد وجود أي تطور في حالة سارة، ويبدو أنها سوف تظل في غيبوبة إلى وقت طويل.

آلمني قلبي بسماع هذا الخبر، ليلة أمس سوف أعيشها الليلة أيضاً، ومن الممكن أن تتكرر مرات عديدة.

سألت الطبيب: وماذا عن وضع الخالة نهى؟!

- أصبحت أفضل الآن، ومنذ قليل ذهبت إلى العناية لرؤية سارة، ثم أخذتها السيدة التي كانت معها وذهبا.

خرجت من المستشفى وأنا لا أعرف إلى أين أذهب، وماذا أفعل إن لم تعدْ سارة وطالت فترة الغيبوبة.

بعد طول تفكير قررت أن أذهب لتفقد والدة سارة والاطمئنان عليها، هذا ما حاولت أن أقنع به عقلي، ولكن في حقيقة الأمر، كنت أريد الذهاب للتحدث معها عن سارة، وأن أعرف منها سبب بعدهما عن بعض كل هذه المدة، فسارة كانت تمتنع عن الحديث عن أي شيء يخص عائلتها، حتى أختها سلمى لم تتكلم عنها قط. لا أعرف حتى كيف توفيت، ووالد سارة لم أره سوى مرتين مرة، عندما ذهبت لطلب يد سارة، والثانية في يوم زفافنا، ومن وقتها لم يتكرر اللقاء.

ذهبت إلى منزل والدة سارة، وعندما فتحت لي الباب وجدتها ترحب بي، وعندما دخلت كنت متردداً بعض الشيء في الحديث؛ فبدأت حديثي:

- كيف حالك الآن؟ هل تحسنتِ؟

- تحسنت برؤيتك يا بني.. هل أخبرك الطبيب بأن سارة سوف تفيق وتتحسن؟

لم أعرف بما أجيبها؛ خفت إن أخبرتها بالحقيقة تسوء حالتها؛ فقلت لها:

- آه.. نعم، خلال أيام سوف تتحسن حالتها بإذن الله.

****

شعرت أنها تعرف أنني أكذب، لكنها تريد أن تصدقني. حال الصمت برهة، ثم قلت لها:

- خالة نهى.. هل بإمكاني أن أسألك سؤالاً؟

- نعم بالتأكيد، اسأل.

- لماذا أنتِ وسارة لم تكن علاقتكما جيدة؟

- ألم تخبرك سارة بأي شيء؟

- في الحقيقة سارة كانت ترفض الحديث عنك وعن والدها، حتى لم تكن تتحدث عن سلـ...

- سلمى، لم تكن تتحدث عن سلمى، هذا ما كنت تريد أن تقوله، أليس كذلك؟!

- نعم، آسف لك.

- لا تعتذر، سوف أجيبك عن كل ما يدور في ذهنك، لكن بعدما تجيبني أنت عن سؤال واحد.

- ما هو؟

- كيف كانت حياتك أنت وسارة؟ هل كنتما سعيدين؟ كيف كانت حياة سارة؟ هل كانت سعيدة؟ مبتسمة؟ أم تبكي؟

- في الحقيقة نعم، أنا وهي كنا سعيدين في حياتنا الزوجية، لكن كنت أشعر من حين إلى آخر أن سارة ليست بخير. في بداية الزواج كنت -كثيراً- أستيقظ ليلاً وأجدها تبكي بمفردها، في البداية كنت أتجاهل الأمر؛ شعرت ألّا رغبة لديها في الحديث، ولكن عندما تكرر الأمر مرات عديدة قررت أن أخبرها أني أسمعها، وحاولت معها أن تحكي أي شيء؛ لكنها لم تُرِدْ.. وكل مرة أقترح فيها هذا الاقتراح كانت تصرخ في وجهي، وتقول لي "لا، لن أذهب إلى طبيبي مهما حدث"، لم أتفهم لماذا كانت ترفض الذهاب بهذا الشكل. أحياناً كنت أحاول أن أمزح معها وأقول لها لا تخافي لن يعطيكِ حقنة، أنتِ مثل الأطفال التي تخاف من طبيب الأسنان. ولكن لم يغير مزاحي من قرارها شيئاً، فاحترمت قرارها ولم أتحدث معها في هذا الموضوع من جديد.

نظرت لوجه أمها وجدته عابساً من حديثي، ثم ذهبت إلى الغرفة وأحضرت دفتراً يبدو أنه قديم، ثم أعطتني إياه، وقالت لي: خذ هذا، سوف يجيبك عن أسئلتك.

فقلت لها: ما هذا؟

قالت: إنه دفتر مذكرات سلمى.

- لماذا تعطينني إياه؟!

- ألم أقل لك إنني سوف أجيبك عن كل تساؤلاتك بعدما تجيبني على سؤالي؟!

- نعم.

- حسناً، في مذكرات سلمى سوف تجد إجابات كل شيء.

أومأت برأسي: حسناً، وآسف إذا أزعجتك.

- إذا كان سؤالك عني إزعاج فلتزعجني كل يوم.

- لا، لا أقصد.. أقصد أزعجتك بأسئلتي.

- لا إزعاج ولا شيء، من حقك أن تعرف عن حياة زوجتك.

- سوف أذهب الآن، لكني سوف آتي مرة أخري للاطمئنان عليكِ.

- سأكون سعيدة جداً لذلك.

***

(٥)
مذكرات سلمى

عُدت إلى منزلي، وأنا في الطريق حدّثت أحد زملائي في العمل كي يخبر المدير عن وضعي، ويخبره أنني لن أستطيع أن أذهب إلى العمل هذه الفترة.

وبعدما دخلت إلى المنزل حدث لي نفس ما حدث أمس، وكأن البيت أصبح مكان لاستحضار الآلام.

قبل أن أترك نفسي لذكرياتي مع سارة مرة أخري قررت أن أعرف ذكرياتها هي. أمسكت بمذكرات سلمى وبدأت القراءة، كان خطها صغيراً يشبه خط الأطفال، وكان الورق يبدو أنه قديم، فاقتربت الأوراق على الذبول.

بدأت في القراءة...

"منذ سنوات ليست كثيرة كنت أعيش أنا وأختي حياة سعيدة، لم يكن أبوانا يهتمان بنا، ولكن خالتي عبير كانت تملأ دوماً هذا الفراغ؛ كانت تهتم بكل تفاصيل حياتنا، وتفعل لنا كل شيء، ونحن أطفال بحكم حبنا لأمنا وأبينا كنا ننتظر مجيئهما كل ليلة، قضاء معهما بضع دقائق كل ليلة كان يكفي. كانت تأتي أمي بالفعل، وكنا نسعد للحظات القليلة التي كانت تقضيها معنا.

كانت تحاول أن تعوضنا عن غيابها طوال اليوم بالألعاب والهدايا، وكنا نسعد بها حقاً، ولكن بعدما كبرنا بعض الشيء لم تصبح تلك الأشياء تسعدنا عندما أدركنا احتياجنا الحقيقي لأم، فأصبحت خالة عبير هي أمنا بالفعل، وأصبحت أمي في مقام الخالة.

رغم ذلك كنا نرى محاولتها إلى حد ما، لكن أبي لم يكن يعود إلى البيت سوى مرة بالشهر، كنت أعتقد وقتها أنه عندما يعود سوف تتشاجر معه أمي لطول فترة الغياب؛ ولكن كنت أتفاجأ بأنها لا تهتم ولا تسأله عن أي شيء خلال هذه الفترة!

لم أفهم قط كيف لا يهمها سؤال زوجها عن أي شيء، أو الجلوس معه، كانت تتعمد العودة متأخرة إلى المنزل في الأيام التي يأتي فيها.

لم يكن أبي خلال فترة جلوسه معنا في البيت يحاول أن يعرف أي شيء عنا. كان يكتفي بسؤاله "كيف حالكم؟ ما أخبار المدرسة؟ هل تذاكرا دروسكما جيداً؟"

كنا نشعر أننا نجلس مع رجل غريب يسألنا عن احوالنا؛ ليس والدنا. في كل مرة كان يسأل هذه الأسئلة المكررة، كنت أنتظر أن يسأل "هل أصابكما مكروه في غيابي؟ هل لديكما اصدقاء؟ هل هناك شيء يحزنكم؟"، كنت أشعر أنه لا يملك ما يقوله لنا، كنت أشعر أني لا أعرفه، وكثيراً ما تمنيت أن يحاول هو معرفتنا، ولكن ذلك لم يحدث".

وأنا أقرأ هذا الكلام في مذكرات سلمى قلت في نفسي أمن المعقول أن ذلك هو ما جعل سارة تكون بعيدة عنهم بهذا القدر؟ أم لمرور كل هذه السنين على هذا الوضع؟ خاطبني عقلي: لمَ تحكم سريعاً؟! سلمى قد ماتت؛ بالتأكيد هناك سر وراء ذلك. كان الوقت قد تأخر لكن فضولي لمعرفة ما حدث جعلني أكمل القراءة حتى جاء الصباح.

وأكملت ...

"كنت لا أشعر بالوحدة القاتلة؛ ففي المدرسة كنت الطالبة المشهورة التي لديها الكثير من الأصدقاء، والجميع يحبني، لكن سارة لم تكن كذلك بل كانت وحيدة أغلب الوقت تجلس بفردها دوماً في فناء المدرسة، تخاف أن تلعب مع الأطفال حتى آتي للعب معها فتشعر حينها سارة أنها ليست وحدها".

قمت بتخطي بعض الأوراق التي كانت سلمى تحكي فيها تفاصيل حياتهما بالمدرسة، وأن الخالة عبير كانت تحاول طوال الوقت ملئ مكان أمهما. ووصلت للصفحات التي تتكلم فيها سلمى عن حياتهما في المرحلة الإعدادية، كان خطها قد تحسن بعض الشيء وقتها.

"لقد أوشكت على الانتهاء من المرحلة الإعدادية، وأصبحت أشعر بالاحتياج الشديد لأمي وأبي، لا شيء يملأ هذا الفراغ، عقلي بدأ استيعاب أن الخالة عبير ليست أمي، أوقات أخري أشعر أنني أيضاً أم لسارة، قررت مواجهة أبي وأمي بما أشعر الليلة، لن أستطيع التحمل أكثر من ذلك، لقد مرت أعوام كثيرة على هذا الوضع.

عندما يأتي أبي اليوم من السفر وتعود أمي من العمل سوف أواجههما بكل شيء.

أصبحت الساعة الحادية عشر مساءً ولم تأتِ أمي بعد!

أبي: واضح أن والدتكما سوف تتأخر كثيراً اليوم، اذهبا للنوم من أجل المدرسة في الصباح.

سلمى: وماذا عنك يا أبي؟ هل ستنتظر أمي حتى تأتي؟

- لا، سوف أذهب للنوم أيضاً؛ لقد تعبت من النوم في الطائرة.

لم يستطع لساني الصمت أكثر من ذلك، فنظرت لأبي بغضب وقلت له: ألم ينتابك الفضول لمعرفة سبب تأخر زوجتك إلى هذا الوقت؟!

نظر لي أبي بحدة وقال: لمَ تتحدثين معي بهذه الطريقة؟! أهذا ما تقوم أمك بتعليمك إياه أثناء غيابي؟

وهو يقول هذه الكلمات فتحت أمي باب المنزل، وعندما دخلت نظرت لأبي وقالت له وهي تتحدث بنبرة صوت شديدة الهدوء: لمَ تصرخ هكذا في هذا الوقت؟! ثم نظرت لي أنا وسارة، وبدأت في توجيه الكلام لنا: لماذا ما زلتما مستيقظتين إلى الآن؟! لديكما مدرسة في الصباح، اذهبا للنوم.

نظرت لها وأنا في حالة من الذهول لذلك الهدوء: أمي، أنتِ تتعجبين لأننا لم ننَمْ إلى الآن؟! ولا تتعجبين لأنك كنتِ في الخارج حتى الآن؟!

أمي: لمَ تسألينني بهذه الطريقة؟ أنا كنت في عملي بالتأكيد، لم أكن مع صديقاتي في أحد المقاهي! أنا طبيبة، هل عقلك يفهم ذلك؟

نظرت لأبي وأمي وشعرت ألّا أمل من الحديث معهما، ليس لديهما الرغبة في النقاش، آخر شيء من الممكن أن يفكر فيه عقليهما هو "ماذا نشعر أنا وسارة؟ ماذا نحتاج منهما غير الأموال؟ بالتأكيد لا يفكران بهذا".

دخلت إلى غرفتي ودخلت خلفي سارة، قالت" لمَ تحدثتِ معهما هكذا؟ لأول مرة أراكِ تتحدثين هكذا!

أجبتها: لأني مللت من طريقتهما تلك، ألم تلاحظي؟! يشغلهما فقط أن ننام لنذهب للمدرسة، لكن لم يسألا عما فعلنا طوال اليوم، لم يسألا ماذا أكلنا اليوم، أباكِ هذا.. كم عدد الأيام التي لما يرَنا فيها؟ هل تعرفين؟! بالطبع لا، لأنهم كثر جداً، هل فكر في أن يعرف ماذا فعلنا خلال هذه المدة؟! إنه لم يحاول أن يسأل زوجته عن سبب تأخيرها.

- لكن أمي قالت إنها كانت في عملها.

- آاااه.. عملها، سارة، أي عمل هذا الذي يجعلها تترك أولادها وبيتها طوال اليوم بهذا الشكل؟ هل أنجبت العمل أم انجبتنا؟! عندما ذهبت للطبيب لمعرفة جنس المولود هل قال لها (مبروك يا مدام أنتِ حامل بعمل)؟!

- لكن يا سلمى هي تذهب وتتركنا مع الخالة عبير، لا تتركنا بمفردنا.

- أنتِ قلتِ الخالة عبير.. خالة.. هي فقط خالتنا، ليست أمنا، تعرفين شيئاً؟ لو كان للخالة عبير أولاد هل كانت سوف تهتم بنا بهذا القدر؟!

صمتت سارة بعض الوقت

- بالتأكيد لا، أمي تستغل أن الله لم يرزق أختها بأولاد، وتترك بنتيها معها طوال الوقت لتتفرغ هي لعملها دون أن يؤنبها ضميرها. يا سلمى أنا أذهب إلى بيوت أصدقائي أشعر أن هناك شيء كبير نفتقده.. إنهم.. إنهم لديهم عائلة.. يجلسون معاً.. عندما يعودون إلى البيت يجدون من يسألهم عن أحوالهم. لديهم أب يخاف عليهم ويحاسبهم، ويعرف كل شيء عن حياتهم؛ متي أكلوا، متي خرجوا، ومتي عادوا، كل تلك الأشياء نحن لا نعرف عنها شيئاً، هل تذكرين آخر مرة خرجنا فيها مع أمي أو أبي؟ متي ذهبنا لنأكل سويا في أحد المطاعم؟ متي ذهبنا معهم

إلى مدينة الألعاب ونحن أطفال؟ لا تقولي لي إن الخالة عبير تفعل ذلك معنا؛ فأنتِ تفهمين قصدي جيداً، فلا تجعليني أنفعل عليك.

- حسناً، لديكِ حق في كل كلمة تقولينها، لكن ماذا سنفعل؟! إنهما أبانا وأمنا؛ لا نستطيع أن نغيرهما أو نحضر أباً وأماً غيرهما. تأقلمي مع هذا الوضع يا سارة، هذا ما كتبه الله لنا.

- تعرفين يا سارة؟ أنتِ تشبهينهما كثيراً، أنت سلبية مثلهما لا تحاولي أن تغيري من حياتك.

- لن أغضب منك، فأنتِ اليوم لا تعرفين ما تقولين.

ذهبت كل منا للنوم.. وفي الصباح عندما استيقظت وجدت أبي جالساً ولم يتحدث بأي شيء، ثم نظرت له أمي وسألته: ستخرج اليوم؟ قال لها: لا سأظل جالساً في المنزل.

ونحن ذاهبتان إلى المدرسة قالت لي سارة: هل هدأتِ؟

أجبتها: بعض الشيء.

دخلت كل منا إلى فصلها، ولكن في نصف اليوم بدأ عقلي يخاطبني: يجب عليكِ مواجهة أباكِ بكل شيء، يجب أن تخبريه بما تشعرين.

يبدو أن النهايات السعيدة في الأفلام جعلت عقلي يتوهم أنني عندما أواجه أبي بما أشعر سوف يحتضنني ويعتذر لي، ونبدأ حياة جديدة، ولكن في الواقع لا أحد يغير من طباعه.

قررت أن أهرب من المدرسة، وأذهب إلى البيت، وأتحدث مع أبي بمفردنا. وبالفعل قفزت من فوق سور المدرسة دون أن يراني أحد من المشرفات، وعدت إلى المنزل. وعندما فتحت الباب وتوجهت ناحية غرفة أبي للحديث معه؛ سمعت صوت امرأة قادماً من غرفة أبي، ولكن صوتها كنت أعرفه..

إنها الخالة عبير!"

ماذا خالة عبير كيف؟

توقفت عن القراءة عندما أدركت أن الصباح قد عاد ولم أنم، ولكن ظل يدور في عقلي كيف أن الخالة عبير كانت على علاقة بوالد سارة وسلمى، وهي من ترعاهما طوال الوقت، وكيف للخالة نهى أن تعرف بكل هذا، والآن تعيش مع الخالة عبير، بل والخالة عبير هي من تهتم بها؟!

كان فضولي يريد معرفة إجابات كل ذلك، ولكن الرغبة في النوم هي من تغلبت عليّ في النهاية.

لم تكن غفوتي طويلة؛ فأيقظني هاتف من رقم مجهول، أجبت على الهاتف بصوت يجعل أي شخص يعرف أنني كنت مستغرقاً في النوم منذ ثوانٍ.

- نعم، من؟

- حضرتك زوج السيدة سارة؟

عندما سمعت اسم سارة انتفضت من مكاني:

- نعم، نعم، أنا زوج سارة، هل حدث لها شيء؟

- هناك تطورات في حالة زوجتك، هل بإمكانك أن تأتي إلى المستشفى الآن.

ارتديت ملابسي وذهبت مسرعاً إلى هناك، ولكن عندما وصلت وجدت الخالة نهى والخالة عبير أيضاً بالمستشفى. سألتهما: ما الذي جاء بكما إلى هنا؟

قالت الخالة نهى: إن المستشفى اتصلت بي وقالت إن هناك تطورات في حالة سارة.

دخلنا جميعاً غرفة الطبيب حسام، وجلسنا نحن الثلاثة، قال لنا الطبيب: هل والد سارة على قيد الحياة؟

قالت خالة نهى: نعم.

قال الطبيب: وهل لديها إخوة؟

نظرت الخالة نهى بحزن وقالت: كان لديها، توفيت منذ أعوام.

نظر الطبيب لنا بآسف شديد.

فالتفتُّ له وسألته: لماذا تسأل عن والدها وإخوتها؟ ما علاقة ذلك بوجود تطور في حالة سارة؟

قال الطبيب حسام: لأن بعد ظهور نتيجة الفحوصات اتضح أن سارة لديها تليف في الكبد، أو ما يسمي بالغيبوبة الكبدية، ومن الممكن أن يكون ذلك السبب في الحادث، إغماء أثناء قيادتها للسيارة أدى إلى اصطدام السيارة بالعمود. وفي هذه الحالة سارة تحتاج إلى تبرع بفص كبد من أمها أو أبيها.

فسألت أنا: أمها أو أبوها فقط؟

قال الطبيب: لا، بالطبع يمكن أن يكون من شخص آخر، بشرط التوافق في فصائل الدم.

خرج كل منا من غرفة الطبيب، ثم ذهبنا لنقوم بعمل بعض الفحوصات حتى يتبين لنا إذا كان يستطيع أحدنا التبرع أم لا. نظرت الخالة عبير لي وقالت: وإذا لم يتطابق أحدنا؟

قلت لها: سوف تقومين وقتها بإقناع والد سارة بالتبرع.

نظرت لي بدهشة من ردي: ولماذا أقوم أنا بإقناعه؟

أجبتها باستهزاء: في الأمس أعطتني الخالة نهى مذكرات سلمى.

- آاااه.. وهل قرأتها كلها؟

- لا، لم أنتهِ بعد.

- حسناً، حتى تنتهي من القراءة ليس مسموحاً لك بالحديث معي بهذه الطريقة، حسناً؟!

لم أجبْها وذهبت لإجراء الفحص.

(٦)

نتيجة الفحص

لم يمر وقت طويل حتى ظهرت نتيجة الفحوصات. وللأسف لم تتطابق الأنسجة للخالة نهى أو الخالة عبير، أو حتى أنا مع فصيلة أنسجة سارة.

قال لنا الطبيب حسام: في هذا الوضع سوف نلجأ لوالد سارة؛ فهناك احتمال أن يتوافق معها.

- ولكن يا دكتور حسام ألم تقلْ إن من الممكن أن يتبرع شخص آخر لسارة، ليس بالضرورة أن يكون أبوها أو أمها؟

- نعم يا أحمد، لكن هذا سوف يتطلب وقتاً لإيجاد شخص ليس لديه مشكلة في التبرع، وأن يتوافق معها، ويكون لديه القدرة الصحية على التبرع، الوقت ليس في صالحكم، لذلك قلت والدها، أعتقد إذا توافق معها لن يكون لديه مشكلة في التبرع، أليس كذلك؟

نظر كل منا للأخر ولم نجد ما نجيب به على سؤال الطبيب، شعر الدكتور حسام أن هناك شيء يتعلق بشأن والد سارة، كان يجب عليه استنتاج ذلك منذ أن لاحظ أنه لم يأتِ إلى المستشفى ولا مرة لرؤية سارة. فأسرع في القول: حسناً، دعونا نبحث عن متبرع لسارة، وفي نفس الوقت نخبر والدها لنضمن جميع الجوانب.

أومأنا برؤوسنا موافقين. خرج كل منا من غرفة الطبيب والاستياء على وجوهنا، ثم خرجت الخالة نهى عن صمتها وقالت لنا: سوف أتحدث أنا مع ماجد وأقوم بإقناعه.

بدأت افكار كثيرة تدور في عقلي، ماذا إن لم يوافق؟ كان كلام سارة في مذكراتها عن طبيعة العلاقة بين الخالة نهي وزوجها أثر على طريقة تفكيري، وجعلني أشعر بعدم استطاعة الخالة نهى أن تُقنع والد سارة بالتبرع لها، فقررت أن أقترح أن أذهب أنا إليه وأشرح له الأمر.

اقتربت مني الخالة عبير وحدثتني بصوت منخفض حتى لا تسمع الخالة نهى ما تقول: ولكن قبل أن تذهب له أكمل قراءة مذكرات سلمى أولاً.

لم افهم مدى إصرارها على قراءتي مذكرات سلمى، ماذا سيشفع لها فعلتها تلك؟ هل من المعقول أن تكون بريئة من خيانة أختها؟

سألت خالة نهى: بماذا تهمسان؟

فأجابتها خالة عبير: لا شيء، أقول له أني سوف أرسل إليه عنوان ماجد ليذهب للحديث معه، أعتقد من الأفضل ذلك، فإذا ذهبتِ أنتِ سوف تقومان -أنت وماجد- بفتح الملفات القديمة، ولا يوجد داعٍ لذلك.

نظرت الخالة نهى في اتجاه آخر، ولم تقُل شيئاً. ذهبت إلى البيت، وما إن وصلت حتى وجدت على هاتفي رسالة من الخالة عبير، بها عنوان والد سارة وإضافة (لا تنسَ المذكرات أولاً).

تعجبت مرة آخري من هذا الإصرار، وكأن المذكرات هي دليل براءتها! أحضرت دفتر المذكرات لأكمل القراءة؛ ليس لإلحاح الخالة عبير، ولكن لفضولي لمعرفة الحقيقة.

(٧)

الحقيقة

سلمى

دخلت إلى الغرفة وأنا أشكك في أذني، إن ما أسمعه ليس حقيقياً، ولكن لم أستطيع تشكيك في عيني أيضاً! إنها بالفعل الخالة عبير في غرفة أبي. لم أجد ما أقول، نظرة الخجل في عيونهما كانت تكفي، ليس هناك ما يقال، فالآن صُدمت في أمي الذي ربتني! والدموع تسقط من عيني، ويدي ترجفان، قلت لهما: أنتما أسوأ من رأيت في حياتي.

أدرت ظهري لهما وخرجت سريعاً من المنزل وأنا لا أستطيع أن أتوقف عن البكاء. كنت أسمع صوتيهما خلفي يقولان: انتظري يا سلمى، سنشرح لكِ الحقيقة؛ انتظري، أنتِ تفهمين خطأ.

لم أهتم لما يقولان، وكنت أُسرع أكثر، ولكن وأنا خارجة من باب البناية اصطدمت بأمي، وعندما وجدتني أبكي بهذا القدر قالت: لي ما بك؟!

فقلت لها: سامحيني يا أمي أنتِ أفضل منهما. ولكن كانت الخالة عبير وأبي خلفي ينظران لها ويقولان: اشرحي لها الحقيقة يا نهى.

نظرت لأمي باندهاش: أي حقيقة؟ ثم نظرت لأبي وقلت له أمي هي من سوف تشرح الحقيقة؟!

حاولت أمي أن تجعلني أهدأ، وقالت لي: هيا ندخل المنزل، وسوف تعرفين كل شيء.

عندما حاولت الخالة عبير لمسِي أزحت يديها بانفعال، ثم نظرت لها بغضب وقلت لها: لا تلمسينني، ومن اليوم لا تعتبري نفسك أمي مرة ثانية.

أخذتني أمي إلى البيت، وقالت لي: فهمتي الموضوع بشكل خطأ.

- كيف يا أمي؟

- عبير ممرضة، وهي فقط ترعى والدك وأنا خارج المنزل.

لم أصدق ما قالت؛ وخاصة عندما نظر لها أبي باندهاش مما قالت. ثم خرجت الخالة عبير عن صمتها وانفعلت على أمي:

- ألم تنتهِ من الكذب عليها طوال حياتك؟

نظرت للخالة عبير بحدة، وقلت لها: لا تنفعلي على أمي، لا يوجد كاذبة غيرك.

كانت كلماتي كالرصاص على أذنها، فنظرت لأمي وقالت: تفضلي بسببك أصبحت أنا الكاذبة.

الغريب أن أمي لم تتكلم، ولم تنفعل. لم أفهم موقفها. نظر أبي إلى أمي وإلى الخالة عبير، ثم قال لهما: حسناً، يكفي، سوف أخبرها بكل شيء.

رفضت أمي ذلك، وقالت له: مازالت صغيرة، لن يستوعب عقلها هذا.

قلت لها: أنا لم أعد صغيرة، وبإمكاني أن أفهم كل شيء، ويجب عليكم أن تقولوا لي كل شيء الآن.

أزاح أبي أمي بيده من أمامي، وقال لي: اجلسي إذن لتعرفي كل شيء.

جلست أنصت لما يقول، وكان ما يقوله مثل العاصفة. كانت حياتي التي لا أحبها أهون عليّ مما سمعت، على الأقل كنت أفهمها؛ أب وأم يهملان أولادهما، وخالة لا تنجب الأطفال وترعاهم، كانت هذه القصة أكثر منطقية بالنسبة لي.

قال لي أبي:

- قبل أن أتزوج أمك كنت أحب عبير منذ كنا صغاراً، ولكن عندما كبرنا، كنت أنا لازلت طالباً بالجامعة، وليس لدي المقدرة على الزواج، وتقدم لعبير شخص للزواج، ووافق عليه جدك دون أن يأخذ رأي خالتك، فقد كان جدك يرفض المناقشة في مثل هذه الأمور، ويعتقد أن الحق له هو فقط في القبول والرفض. وعندما علمت أنا أنها سوف تتزوج من شخص آخر؛ اعتقدت بذلك أنها تخلت

عني، ولم تحارب من أجلي؛ لم أتفهم وقتها أنها مستحيل أن تستطيع معارضة أبيها.

تعجبت من كلامه، وقلت له: فلتذهب وتتزوج من أختها؟!

قال أبي: نعم، عندما تخرجت من الجامعة ذهبت وطلبت من جدك أن أتزوج أمك كنت أظن بهذا أنني أعاقب عبير على تخليها عني، لكن أدركت بعد ذلك أنني أعاقب نفسي، ولأن جدك لا يعارض؛ فاضطرت أمك أن تتزوج مني وهي تعرف أنني وأختها نحب بعض. وعشت أنا وأمك حياة تعيسة، هي لم تستطع يوماً أن تنسى أنني أحب أختها، وأنا في الحقيقة لم أتخلى عن حب عبير قط، حتى بعدما أنجبتك أمك، وحتى بعدما أنجبت سارة، ولكن الوضع تغير بعد ذلك.

- كيف؟

- لقد انفصلت خالتك عن زوجها بعدما تأكد أنها لا تستطيع أن تنجب أبناء. في البداية لم أعرف ماذا أفعل، وخصوصاً عندما أخذت خالتك بيتاً بجوارنا، وأصبحت أراها كل يوم. كنت أتحجج لنذهب إليها، وأجبر أمك لتجعلكما تذهبان لها، لأنها ليس لديها أطفال، وأن تدعوها للغداء معنا حتى لا تكون بمفردها، وما إلى ذلك. وبالطبع شعرت أمك أن كل يوم يزداد شوقي لأختها، وخافت أن يأتي اليوم الذي أتسبب فيه أن تخسر أختها بسببي؛ قررت أن تقوم بخسارتي أنا من أجل اختها.

- كيف؟ ماذا فعلتِ يا أمي؟

نظرت لي أمي بصوت يملأه الحزن:

- تركت والدك، انفصلت أنا وهو، جعلته يتزوج من خالتك، ولكن دون أن نخبركما لأنكما كنتما صغيرتين، ومن المستحيل أن يتفهم عقلكما هذا.

قالت لي الخالة عبير: فهمتِ الآن؟! أنا لم أخن والدتك يوماً، هي من قررت أن أتزوج أنا وأباكِ، لم أوافق في البداية، ولكن هي من أصرت؛ لأنها كانت تشهد على قصة حبنا منذ أن بدأت.

ثم قال أبي:

- ولهذا السبب لم أكن أسأل أمك لماذا تعودين متأخرة؟ ولا هي كانت تهتم لأمري.

قلت له:

- نعم، ولهذا السبب أيضاً لم تحبنا؟

- ماذا؟ كيف لا أحبكم؟! أنتم بناتي.

- نعم، لكن نحن أولاد نهى، الزوجة أمام الناس، لكنّا لسنا أولاد عبير حبيبتك.

صرخ أبي في وجه أمي:

- هذه تربيتك، انظري كيف تتحدث معي.

لم أعطِ أمي المجال للرد، وسرعان ما أجبت أنا:

- لا، هذه ليست تربيتها، إنها تربية زوجتك عبير، ألم تكن تجعلنا نجلس معها أكبر وقت لمراعاة مشاعرها ولئلّا تكون بمفردها؟! ألم تسأل نفسك يوماً عن مشاعر أمي؟! تحب أختها وتذهب للزواج منها؟! ثم تظل تفكر في أختها وأنت معها؟! ثم تتركها وتتزوج من أختها؟!

صرخ أبي في وجهي:

- لم أتركها، هي من طلبت ذلك.

- لأنها كانت تخاف أن تفعلها أنت، حاولت أن تحافظ على الرباط المقدس الذي يجمعها بأختها، حتى لا تقوم أنت بقطعه، خالتي لم تستطع أن ترفض الزواج من زوجها القديم، وأمي لم تستطع أن ترفض الزواج منك، وأيضاً لم تستطع أن تجعلك تحبها وتنسي خالتي. لكن ماذا عنك؟ لم يجبرك أحد على أفعالك، ألم تواجه نفسك يوماً؟ أنت دمرت حياة أمي، ودمرت حياتي أنا وأختي، هل تعتقد أننا كنا سعيدتين في حياتينا ونحن ندخل بيوت أصدقائنا ونشعر أن الجميع لديهم آباء إلانا؟ أنت لم تكن يوماً لنا مثل باقي الآباء، أتعرف لماذا؟! لأنك لم تتمنَّ يوم أن تنجبنا بالتأكيد، لو كانت أمنا عبير لكان حبك لنا اختلف؛ لذلك حاولت أن تجعل منها أماً لنا. ولكن الآن عرفت الحقيقة؛ يمكنك أن تعيش معها، وسوف

أعيش أنا وأختي مع أمي، يكفي أن سُرق منها حياتها وزوجها، لن تسرقا منها أولادها أيضاً.

نظرت لأمي فشعرت أنها سعيدة لما سمعت، هذه هي المرة الأولي الذي تشعر فيها أن أحد يعرف ما تشعر به؛ لذلك كانت تتأخر في العودة إلى البيت، خصيصاً في الأيام التي يأتي فيها أبي إلى البيت، كي لا تكون مضطرة للجلوس بينهما كالغريبة.

لم تحتجْ أمي أن تبرر لي موقفها، رغم أن أبي هو من كان يروي القصة، لكن أنا رأيتها بعين أمي، وأشفقت على ما مرت به. لم تكن يوماً مرغوبة من قبل زوجها.

توقفنا جميعاً عن الحديث عندما دخلت سارة إلى المنزل، كانت متوترة، وعندما رأتني قالت: حمداً لله على سلامتك، عندما لم أجدْك في المدرسة كنت خائفة أن تكوني فعلتِ شيئاً.

قال أبي: صحيح، كيف خرجتِ من المدرسة قبل ميعادك؟ نظرت له وأجبت وكأنه يسألني عن نوع الفطور الذي تناولته اليوم: قفزت من فوق سور المدرسة دون أن يراني أحد.

تجاهل أبي طريقة حديثي، وقال لي بنفس طريقتي في الحديث: حسناً، خذي حذرك المرة القادمة حتى لا تكسر قدمك. تعجبت سارة من طريقة الحديث بيننا وكيف مرر أبي فعلتي بهذه السهولة.

(٨)

لقاء أحمد وماجد

بعد أن عرفت الحقيقة أدركت لما كل هذا الإصرار من الخالة عبير لأكمل قراءة المذكرات. وفي الحقيقة أنا لم أفهم كيف عاشوا جميعاً في هذه الكذبة لعدة سنوات. وكيف للخالة نهى أن تتحمل مثل هذا الألم...

رغم أني لم أغير فكرتي كثيراً عن والد سارة وسلمى، هو لم يكن زوجاً خائناً، ولكنه خان زوجته منذ قام بطلب يديها وهو يحب أختها، كان يظن بذلك الانتقام من حبيبته، لكنه انتقم من زوجته وأولاده دون ذنب لهم.

ولكن..

قررت أن اذهب لرؤيته، وأن أخبره بما حدث مع سارة. ذهبت إلى العنوان الذي قامت بإرساله الخالة عبير لي.

كان عم ماجد يعيش في بيت في حي قديم، إنه البيت الذي كان يعيش فيه وهو طفل، والذي كان بجوار منزل الخالة عبير والخالة نهى في الماضي. طرقت باب المنزل؛ ولكن تعجبت من أن الباب كان مفتوحاً! ورغم ذلك لم أستطع الدخول حتى يُأذن لي.. طرقت الباب مرة أخري ولكن بشكل أقوي؛ فسمعت صوته يقول:

- ادخل، الباب مفتوح.

دخلت إلى البيت، كان يجلس على الأريكة، وبدأ يحدثني دون أن ينظر لي:

- أنت الزبال أم البواب؟

- لست أحدهم.

- إذن أنت محصل الكهرباء، قلت لك من حاسب عم سمير البواب وأنا سوف أحاسبه.

- لكني لست محصل الكهرباء.

- وأنا لا أستخدم الغاز، ولا أقوم بالطبخ، حسناً.. ارحل.

- حسناً، انظر إلى وجهي كي تعرف من أنا.

نظر إليّ وقال:

- أنت شاب وسيم، لكن لم أعرفك.

- حسناً، انظر إليّ جيداً

قال وهو يحرك رأسه في اتجاهي مرة أخري بتأفف: يا أخي لا أعرفك، لكن لحظة، لا، أنا أعرفك.

بدأ يمسح عيناه وينظر لي بدقة:

- أا.. أنت زوج؟!

- نعم، أنا زوج سارة ابنتك.

- اجلس يا بُني، اجلس بجواري، أنا آسف على هذا الاستقبال، فلا أحد يأتي إلي هنا إلا البواب أو الزبال فقط.

- وكيف تجلس وأنت تارك باب البيت مفتوح هكذا؟

- كل من يعيش في هذه البناية يعرفني منذ زمن، لا أحد سيفعل لي شيئاً، هم يتمنون أن أرحل من هنا، ويشفقون على وضعي، ولكن يتركوني احتراماً لروح أبي وأمي الذين كانا صديقين لهم منذ زمن.

- وما الذي أوصلك لهذه الحال؟

- الندم.

-الندم؟

- نعم، بعد وفاة سلمى توقفت حياتي، كان هذا الألم الذي جعلني أفوق ممّا كنت أفعل معها. هل حكت لك سارة ما حدث؟

- لا، لم تقل لي، ولكني عرفت بعض الأشياء.

- ماذا عرفت؟

- عرفت عن زواجك أنت والخالة عبير.

- وكيف عرفت هذا وسارة لم تخبرك؟

- لقد أعطتني الخالة نهى مذكرات سلمى؛ كي أعرف الحقيقة.

- بما أنك أخذت مذكرات سلمي؛ فهذا يعني أنك عرفت كل شيء، ليس فقط زواجي أنا وعبير.

نظرت له بدهشة: هل قرأت مذكرات سلمى أنت أيضاً؟

- نعم.

- لماذا تتعاملون مع مذكرات الفتاة وكأنها حكاية ألف ليلة وليلة؟

- إنها كانت وصية سلمى.

- كيف؟

- قبل أن تدخل سلمى المصحة تركت لنا مذكراتها، أخبرتنا أن نقرأها كي نعرف كيف كانت ترانا دوماً، وبما كانت تشعر.

- آاه، فهمت الآن، ولكن لحظة؛ هل قلت إن سلمى كانت في المصحة؟

- نعم، ألم تقل إنك قرأت مذكراتها؟

- نعم، ولكن لم أكملها بعد.

- حسناً، حرقت لك الأحداث.

- بما إنك حرقتها، هل بإمكانك أن تكملها لي؟

- ولماذا؟

- كي أسمعها من وجهة نظرك.

نظر لي والفرح يبدو على وجهه:

- أنت أول من يطلب مني أن يرى ما حدث من وجهة نظري. تعرف؟ كنت سأسعد جداً في الماضي من هذا الطلب، ولكن الآن وجهة نظري لا تفرق كثيراً عن وجهة نظر سلمى؛ أنا الجاني بالقصة يا ولدي.

- وما الذي جعلك ترى نفسك بهذا الشكل؟

قال بعين تملأها الحزن: موت سلمى. وتساقطت من عينيه الدموع، ولكن سرعان ما قام بمسحها وأكمل:

- تعرف يا ابني؟! عندما قرأت مذكراتها كان يوجد بها جملة قامت هزت قلبي من الداخل، كنت كلما أتذكر سلمى أتخيلها تقف أمامي وتقول هذه الجملة في وجهي، كنت أشعر وقتها وكأن أحدهم صفعني.

- ما هي هذه الجملة؟

- كانت كاتبة **"رغم امتلاكي الكثير من الأصدقاء على عكس سارة، لكني دوماً أشعر بالوحدة، لأن الرجل الوحيد بحياتي -وهو أبي- لم يجعلني أتيقن يوماً من حبه لي، فأشعر وكأنه لا يوجد قلب رجل في العالم أحبني، وهذا سبب الفراغ الذي يملأني من الداخل"**. كانت هذه الكلمات هي من جعلت عقلي يفهم ما كانت تعيشه بسببي طوال حياتها، ولأن دفاعي عن نفسي دائماً كان أني كنت أحب عبير، ولا أحد يعرف ما تأثير الحب عندما يتملك من صاحبه، كانت كلمات سلمى عن عدم شعورها بالحب من كل رجال العالم بسببي جعلتني أنظر للقصة بشكل جديد. أنا الجاني.. نعم يا بُني، كان يجب أن يعلّمني أبي عندما أنجب أطفالاً فكل الحب الذي يوجد بقلبي هم أولي به؛ حتى لو لم أكن أحب أمهم. تعرف؟! وقتها كرهت حبي لعبير، وقررت أن أريح ابنتي من هذا التشتت الذي تشعر بها تجاه أمها وخالتها، وانفصلت عن عبير. قررت وقتها عندما تخرج سلمى من المصحة سوف أقوم ببدء حياة جديدة معها هي وسارة، وبالفعل تقرّبت من سارة في هذا الوقت، وكنت أريد أن أذهب إلى سلمى لأخبرها بذلك، ولكن سلمى لم تكن تريد رؤيتي. وقررت الانتظار إلى حين موعد خروجها.. ولكن القدر كان لديه رأي آخر، قرر معاقبتي، قرر ألّا يعطيني فرصة للاعتذار، لقد ماتت سلمى داخل المصحة، ومات معها كل من سارة ونهى وعبير، وأيضاً أنا.

- لهذا السبب كانت سارة بعيدة عنكم؟

- نعم، رغم أن سارة كانت أكثر تعقلاً من سلمى، إلا أن موت سلمى دمرها وجعلها تكرهنا، وترى أننا من قتلها، ولأني كنت أراقبها دوماً دون أن تعرف خوفاً أن يحدث لها شيء مثل سلمى. وجدتها تعيش حياتها مثل سلمى كي تشعر بوجودها.

- كيف؟

- كانت تلبس مثلها، تتحدث مثلها، تقوم بالاهتمام بالأشياء التي كانت تحبها سلمى؛ مثل القراءة، حتى أنها دخلت كلية التربية، على الرغم من أنها كانت تحب الرسم، وتريد دخول كلية الفنون الجميلة، لكنها دخلت كلية التربية لأن ذلك كان حلم سلمى، كانت سلمى تحب الأطفال كثيراً. كنت خائفاً عليها كثيراً، وأخاف أن ينتهي بها الأمر مثل سلمى، فكنت دوماً أقوم بمراقبتها. ولكني توقفت عن مراقبتها بعدما ظهرت أنت في حياتها.. في هذا اليوم الذي قابلت أنت فيه سارة عند بائع الكتب، توسمت فيك خيراً، وشعرت أنك وسارة سوف تكملان حياتكما معاً؛ لذلك كنت سعيداً عندما جئت لطلب يديها مني.

مرت لحظات من الصمت بيننا لم نجد فيها ما نقول، ثم قال لي عم ماجد: لكنك لم تقل لي ما الذي ذكّرك بي، وجعلك تأتي إليّ؟

كنت متردداً كثيراً من أن أخبره بعد كل ما قال، ولكن من حقه أن يعرف؛ حاولت أن أمهد له الأمر أولاً:

- أنت بالتأكيد لا تريد أن تخسر ابنتك الثانية، أليس كذلك؟

- نعم، أكيد.

- حسناً.. ااا.. اا.. ما حدث هو أن..

- يا بني، أنت تعذبني هكذا؛ قل ما عندك أرجوك، هل حدث لها شيء

-لا، لا، بالطبع لا.. ولكن هي مريضة بعض الشيء

- كيف؟ ماذا بها؟ تكلم سريعاً.

قلت له كل ما حدث منذ البداية، أخذني من يدي سريعاً نحو الباب، وعندما سألت إلى أين قال لي: إلى المستشفى عند سارة.

- حسناً حسناً، تمهل، سوف آخذك لها، انتظر، سوف أقع من فوق السلم، ووقتها سوف تأخذني أنت إلى المستشفى.

***

(٩)

المستشفى

ذهبت أنا وعم ماجد لغرفة دكتور حسام، وقمت بإخباره أن والد سارة مستعد لإجراء الفحص، والتبرع في حين توافقت الأنسجة.

دخل عم ماجد لإجراء الفحص، بينما جلست أنا خارج المستشفى في أحد المقاهي المجاورة أفكر فيما قال لي.. حديث العم ماجد عن موت سلمى، وكيف دمر كل شيء فيهم جميعاً بعدها، خصوصاً سارة، أصاب قلبي بالخوف، هل من الممكن أن يحدث هذا لسارة؟

كيف يجعل الموت صاحبه يرحل ببساطة، ويبقي الأحياء يتألمون بهذا الشكل؟ في رأيي الموت يقوم بأخذ جسد واحد، ولكن مع هذا الجسد يقتل أكثر من روح كانت متعلقة بصاحب الجسد.

لم أتحمل، وتساقطت دموعي بقوة وأنا أصلي، عندما تخيلت أني قد أفقدها. شاهدني أحد الرجال الموجودون بالمقهى وأنا أبكي، فأتي ليحدثني: ما بك يا ولدي؟ لمَ تبكي هكذا؟ لا يوجد في الحياة ما يجعل الرجال تبكي إلى هذا القدر.

شعرت وكأن أبي هو من يحدثني..

رددت عليه قائلاً: لا يوجد.

- اهدأ إذاً، لمَ كل هذا الانفعال؟ يبدو أن الأمر يتعلق بفتاة، أليس كذلك؟

أومأت برأسي أن نعم.

- ألا يريد والدها أن يزوجك بها؟

ضحكت من قوله وأجبته: لا

- أتحب شخصاً آخر؟

- لا

نظر متعجباً: ليس معك أموال للزواج؟

- أيضاً لا.

- لا لا لا لا! إذن لمَ تبكي؟!

- لأنها قد تموت.

- آه، إذا كان هذا هو الأمر فحقك أن تبكي، ولكن بعد أن تبكي ماذا سوف يحدث؟

- ماذا؟ لا أفهم.

- أنت تبكي، ماذا إذن؟ هل سيتغير القدر؟

- لا، ولكن أنا لن أستطيع تحمل ذلك إذا حدث.

- حسناً، احمد الله أنه لم يحدث بعد؛ فهناك فرصة للدعاء. تعرف يا ولدي؟ من ثلاث سنوات توفيت زوجتي، وجلست أبكي مثلك هكذا، لكنها جاءت لي في المنام، وقالت لي "بكائك لن يفيدني، ادعُ لي يا محمود". احمد الله يا ولدي أن هناك فرصة للدعاء، المسجد هناك، ادخل صلِّ وادعُ.

نظرت له بإعجاب شديد:

- شكراً لك، سوف آخذ بنصيحتك.

- قبل أن اذهب قل لي ما اسمك.

-أحمد.

- حسناً، احمد الله يا أحمد.

ابتسمت له وشعرت كأنها رسالة، ودخلت لأصلي وأدعو الله أن يشفي سارة، وعندما خرجت وجدت الله قد مَن عليّ بسرعة الاستجابة، لأنني بعدما عدت إلى المستشفى وجدت العم ماجد يقوم باحتضان الدكتور حسام، وعندما سألته لما يقوم باحتضانه، أخبرني أن أنسجته توافقت مع أنسجة سارة، ويمكنه التبرع لها، وهكذا سوف يُكتب لها الشفاء بإذن الله، وجدت نفسي أسجد لله شاكراً على سرعة تقبل

الدعاء، كأن الأمر فقط يحتاج إلى اليقين بالله، والاستعانة به على قضاء الحوائج. ثم قمت بإخبار الخالة نهى ليهدأ قلبها قليلاً.

لا أعرف لماذا لم أقم بإخبار خالة عبير، ولم أقم حتى بالحديث معها عن أي شيء بعدما قرأت باقي مذكرات سلمى، وعرفت أنها لم تقم بخيانة أختها. يبدو أنني لم أتعاطف معها، لا أعرف لماذا.

***

(١٠)

بيت أحمد

عدت إلى المنزل هذه المرة وأنا يملأني الأمل باقتراب اليوم الذي سوف تعود فيه سارة معي إلى المنزل. وعندما سمعت صوت المؤذن وهو يقول الله أكبر.. الله أكبر شعرت بصوت الرجل الذي قابلته في المقهى يتكرر في أذني: احمد الله يا أحمد.. احمد الله يا أحمد. فقلت لنفسي ذهبت للصلاة من أجل استجابة الدعوات، ماذا عن بعد الاستجابة؟!

قمت بالوضوء وأداء الفريضة، ثم قمت بصلاة ركعتين شكراً لله، والدعاء بأن يتم الله شفاءها على خير.

بعدما انتهيت من صلاتي.. نظرت للمنزل وأنا أتخيل اليوم الذي ترجع فيه سيدته إليه ويشرق بنورها.. ثم مرت أمام عيني الكثير من الذكريات معها، وكم كانت الحياة في وجودها جميلة ومبهجة، ولكن تذكرت عندما كانت تبكي ليلاً بمفردها وترفض أن تقول ما بها. والآن بعدما عرفت سبب بكاءها دار في عقلي الكثير من الأسئلة، كيف كانت تعيش بشخصيتين طوال الوقت؟

كانت بالنهار تقرأ وتكون مبتسمة وسعيدة، وتذهب إلى عملها، حيث تقوم بتعليم الأطفال، وكانت دائما سعيدة بهذا. ولكن ليلاً تجلس وترسم، وأكثر الوقت لا تتحدث، وعندما كنت أسألها عن السبب؛ كانت تقول إنها مرهقة من العمل، والرسم يقوم بتفريغ هذا التعب، وليس لديها القدرة على الحديث.

لم أظن يوماً أن هناك أسباب آخري. حديث العم ماجد عن أنها كانت تعيش بشخصية سلمى بعد وفاتها آثار الشكوك داخلي، يا تُري من أحببت أنا؟ شخصية سارة أم سلمى؟

تذكرت اللقاء الثاني بيني أنا وسارة.. بعدما أعطيتها كتاب الفيل الأزرق، وأهدتني هي أرض زيكولا؛ وقتها كنت أبحث عنها بالجامعة ولم أجدها، كنت أقف

أمام كلية التربية كي أراها، ولكن لم يصادف أن رأيتها، ولا مرة. لم أفهم السبب الذي شدني لها، ولمَ أبحث عنها؟

ولكن في يوم وأنا أجلس في أحد المطاعم القريبة من الجامعة مع أصدقائي

رأيتها.. دخلت إلى المطعم وجلست على طاولة بمفردها، ثم أخرجت من حقيبتها أدوات الرسم. لم تكن تنتبه لوجودي؛ فقمت بالنداء على أحد العاملين بالمطعم، وطلبت منه أن يحضر عصير فراولة، ويعطيه للفتاة التي ترسم هناك، ويعطيها معه ورقة قمت بكتابتها لها. عندما أحضر لها العامل العصير أخبرها أنني من قمت بإرساله، فنظرت لي باندهاش ثم بدأت في قراءة الورقة:

(شكراً لكِ على أرض زيكولا، أتمنى أن يكون أعجبك الفيل الأزرق).

لم تعطِ أي ردة فعل، ثم مر بعض الوقت، قامت من مكانها ودخلت المرحاض، ثم خرجت وأرسلت لي ورقة مع نفس العامل، كانت قد قامت برسم صورتي، وكتبت عليها (لا أعرف كيف عرفت أني أحب الفراولة ولكن أتمنى أن تحب رسمتي).

***

عندما تذكرت هذا الموقف وكأن قلبي يخبرني: أنت أحببت سارة يا أحمد، أنت -دون أن تعرف عنها- أي شيء انجرفتْ مشاعرُك تجاهها. الغريب أنه كلما جاء اسم سلمى في بالي أشعر بالضيق، ولا أفهم السبب في ذلك، يمكن لأني كنت أخاف أن ينتهي الأمر بسارة مثلها. حاولت إيقاف عقلي عن هذا التفكير؛ فقمت بالدخول للغرفة، والبحث في أشياء سارة، ووجدت إحدى رسوماتها، ولكن تفاجأت عندما وجدت الكثير من اللوحات كلها لسلمى، لم يسبق لي ورأيت سلمى من قبل، لكن عرفت أنها هي، كان يوجد رسمة لوالد سارة وأمها وهي وفتاة لا أعرفها، بالطبع هي سلمى، وفهمت إذن؛ كانت سارة تجلس ليلاً تنفِّس عن اشتياقها لأختها في رسمها، ولذلك كانت تبكي، وتمتنع عن الحديث، لم أكن أعرف كل ما مرت به، وأتمني أن تعود سريعاً لأشاركها حزنها، وأخففه عنها.

(١١)

العودة للمذكرات

بعد أن عرفت كل هذه الأشياء.. قررت أن أعرف باقي الحقيقة، يجب عليّ فهم لماذا دخلت سلمى المصحة كما قال لي العم ماجد، وما السر وراء موتها.

وأيضاً لم أستطع التخلص من شكوكي تجاه الخالة عبير، فأنا لم أفهم لماذا لم أرتح لها منذ أن رأيتها، ولم أتعاطف مع فكرة أنها جُبرت على الزواج من شخص آخر؛ فتوافق على الزواج من زوج أختها بهذه البساطة!

لازلت أراها خائنة، وسوف أعرف سبب شكوكي هذه، لكن بعد معرفة باقي أسرار سلمى.

أكملت القراءة، ولكن هذه المرة كانت المفاجأة أكبر من جميع ما سبق. كل ما حدث لسلمى كان بسبب خطأ قديم للخالة نهى!

سلمى

قررت ألّا أخبر سارة بأي شيء عمّا حدث، ولكن ظلت معاملتي مع أبي بهذا الوضع مستمرة، وكان يحاول أن يتجاهلني أكثر الوقت، إلى أن نفذ صبره، ولم يعد لديه القدرة على تحمل سخافتي أكثر من ذلك، وعندما كان عائد إلى عمله في الإمارات لم أخرج من غرفتي لأقوم بتوديعه مثل كل مرة، وجلست أقرأ كتاب.

ولكن.. دخل أبي إلى الغرفة، وقال لي: ألن تأتي لتودعيني؟! سوف تطول سفرتي هذه المرة.

لم أرفع نظري عن الكتاب وأنا أحدثه وأقول: لا يهم، أنت في جميع الحالات لست موجوداً.

- انظري لي يا سلمى، سوف أخبرك بشيء؛ كل الآباء عندما تحب يغضب بناتهم ويشعرن بالغيرة، ولكن عندما تحبين أنتِ لن أغضب؛ أتعرفي لمَ؟

- نعم بالطبع، لأن كل الآباء قضوا وقتاً طويلاً مع بناتهم في صغرهم، فعندما تحب ابنتهم أحداً يشعرون بالغيرة منه من كثرة تعلقهم ببناتهم، وأنت لم تقضِ معنا أي وقت لتتعلق بنا؛ لمَ تغار إذن؟!

- لا.. لا ليس أي شيء مما قلتِ.

- حسناً، لأنك لا تهتم لأمري.

- لمَ لا تسألينني عن الإجابة بدلاً من محاولات الاستنتاج هذه؟!

قلتُ له بتأفف:

- امم حسناً، قل ما عندك.

- تعرفين شيئاً؟ إذا عاد بي الزمن سوف أقضي معك أطول وقت ممكن لأعلمك آداب الحديث.

رفعت عيني تجاهه دون أن أعلق بأي شيء، كنت أعرف أنني تجاوزت حدودي في الكلام، ولكن شيء داخلي كان دوماً يريد أن يغضبه.

- أنا أكثر أ يتمني أن تُحب ابنته؛ لأنك عندما تحبين سوف تعرفين لمَ فعلتُ كل الأشياء التي تعتقدين أنها أنانية وظلم.

- آاه.. وهل سأعرف أيضاً لمَ لم تكن تهتم بي وأنا صغيرة مثل باقي الآباء؟!

- إجابة هذا السؤال معروفة، لأني كنت أعمل في الخارج، أليست إجابة بالنسبة لك؟!

- لا، ليست إجابة، كان يكفيني عندما تعود أن تقوم باللعب معنا، الخروج معنا، تسألنا عن أحوالنا، تأتي إلى المدرسة لمعرفة مستوانا، هل لدينا أصدقاء؟ هل يقوم أحد بإزعاجنا؟ أنت لا تعرف كم نبلغ من العمر، لا تعرف ماذا نريد أن نكون عندما نكبر، لا تعرف مثلاً أن سارة ليس لديها أصدقاء، وتخاف من التعامل مع أي أحد في المدرسة. من كثرة خوفها من التعامل مع الناس لم تشارك في

مسابقة المدرسة للرسم، رغم أنها كانت ستحصل على المركز الأول إذا اشتركت. قل ماذا تعرف عنا، أجب، ماذا تعرف؟ هاا؟!

- أعرف.

- ماذا تعرف؟

- أعرف أنك تحبين القراءة، وأن لسانك طويل.

- حقاً؟! شكراً لك يا أبي، شكراً لك، تستطيع أن تعود إلى عملك، وأنا سوف أبحث عن شخص أحبه مثلما قلت، كي أعرف السبب الذي جعلك تترك زوجتك وتتزوج من أختها بتلك البساطة، ولكن أهم شيء سوف أحاول أن أعرف لمَ لا تحب أولادك بسبب عدم حبك لأمهم؟

- أتمنى أن تعرفي أني أحبك، وأحب أختك ولكن، بطريقتي أنا.

- أتمنى عندما أحب أن أحب رجلاً لا يحبني بطريقتك.

خرج أبي من الغرفة وقام بتوديع أختي وخالتي، كانت أمي كالعادة ليست موجودة في البيت في اليوم الذي يرحل فيه، هذه المرة لم أتعجب؛ بل أتفهم شعورها.

جلست طوال الليل أنتظر أمي حتى تعود إلى المنزل، كان الوقت قد تأخر كثيراً. وعندما دخلت إلى المنزل كان الإرهاق واضحاً عليها، سألتها: لما تأخرتِ كل هذا الوقت يا أمي؟

قالت لي: كان هناك الكثير من المرضي ولذلك ...

لم أجعلها تكمل حديثها، وقلت: أليس غريباً أن طوال هذه السنوات يكون هناك الكثير من المرضي في اليوم الذي يعود فيه أبي وأيضاً في اليوم الذي يسافر فيه؟!

- ماذا تريدين يا سلمى؟ أنا متعبة، وليس لدي طاقة لحديثك هذا.

اقتربت منها ببطء، ثم وضعت ذراعي حول عنقها:

- أتفهمك يا أمي، أعرف ما تشعرين به، أنت تحبين أبي، أليس كذلك؟

- أنتِ لازلتِ صغيرة يا سلمى لتفهمين هذه الأمور.

- لا يا أمي، لو كنت صغيرة ما كان طلب مني أبي اليوم أن أحب؛ لأعرف ما يشعر به.

- أبوكِ قال ذلك؟

- نعم، أمي، أريد أن أسألك سؤالاً، ولكن يجب عليكِ أن تقولي الحقيقة، حسناً؟

- ماذا تريدين أن تسألي؟

- هل حقاً أنتِ من طلبتي من الخالة عبير الزواج من أبي؟

- لا.

نظرت لها وابتسامة الثقة تبدو على وجهي:

- كنت أعلم، ما الحقيقة إذن؟ هل يمكنك إخباري؟ وأعدك أنني لن أحكم عليكِ.

- سوف أخبرك بشرط.

- ما هو؟

- لا تخبري والدك بشيء.

- موافقة.

- عندما طُلقت خالتك عبير بسبب أنها لا تنجب أولاد، جاءت لتسكن ببيت قريب منا، بدأ الخوف يتسرب إلى قلبي شيئاً فشيئاً؛ كان والدك يتردد عليها كثيراً بحجة إنها وحيدة، وليس لديها أولاد، ولكن لأنني كنت أعرف في الماضي أنهما كانا يحبان بعضهما، كنت واثقة أن هناك شيئاً سوف يحدث بينهما، فبدأت أهتم بوالدك كثيراً حتى لا يتركني.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- جاءت لي خالتك عبير، وطلبت مني أن أتركه أنا، وقالت إن لم أتركه سوف يتركني هو، ويجب أن أحافظ على كرامتي وأقوم بتركه أولاً، لم أوافق في البداية، وقلت لها نحن لدينا أولاد، وإن تركته سوف تعيشان -أنت وأختك- دون أب. قالت إننا يمكننا ألّا نخبركما بشيء، ونعيش أمامكما كأننا متزوجيْن. قلت لها كيف سنعيش في منزل واحد وأنا لست زوجته، وكيف سوف تعيشِين أنتِ معنا؟ قالت إن والدك جاء له عقد عمل في الإمارات، وسوف يسافر، لكنه لم يخبرني بعد، وهكذا لم يكن موجوداً أغلب الوقت، وعندما يأتي سوف تتأخرين أنتِ كثيراً في الخارج بحجة العمل، وأنا بالطبع سوف أبقى عندكم لرعاية البنات، وبهذا لن تعرف البنات أي شيء.

فقلت لها بانفعال: وماذا عني؟! ألم تفكري فيّ؟ ألم تفكري أني بهذا الشكل سوف أخسر زوجي وحياتي وبناتي أيضاً؟

عبير:

- زوج؟ أي زوج؟ نهى، ماجد تزوجك لينتقم مني لأني تزوجت من كثرة حبه لي، أنتِ ليس لديكِ زوج أو حياة، هذه حياة مزيفة، الشيء الوحيد الذي تملكينه هو سلمى وسارة.

عندما رأت عبير وجهي حزيناً من كلامها بدأت بتوجيه الشكوك لي.

- هل أحببتِه؟

لم أجبها، فأكملت هي:

- كيف تقومين بخيانتي؟

سلمى: أنت من قمتِ بخيانتها لأنك أحببتِ زوجك؟!

أكملت نهى تحكي لسلمى ما قالته عبير في ذلك اليوم:

- كيف تحبيه وأنت تعرفين أنه يحبني وأنا أحبه؟ ألهذا وافقتِ على الزواج منه؟!

- ما الذي تقولينه؟ أنا مستحيل أوافق على الزواج من شخص أعرف أن أختي تحبه.

- إذن لما لم ترفضي؟

- آه، ولمَ لمْ ترفضي أنتِ الزواج من زوجك السابق؟! هل كان أبوكِ يمكن أن يعارَض؟! أظن أنك أكثر من يعرف هذا، لم يكن في وسعي أن أرفض.

- حسناً.. حسناً، وقتها لم تكونِي تستطيعين أن ترفضي، الآن ماذا يمنعك أن تتركيه؟! البنات وقلت سوف أهتم أنا بهم، ولكن إذا رفضتي أن تتركيه سوف أتأكد أنكِ تحبينه، وبهذا الشكل لن نصبح أختيْن مرة أخري، لقد قمتِ بخيانتي.

***

انتظرت حتى عاد أبوكِ إلى البيت، ووجدته يقول لي إنه سوف يسافر للعمل في الإمارات، وقتها تأكدت أنه يجلس مع عبير، ويتحدث معها، فهي تعرف من قبلي أن زوجي سوف يسافر. شعرت أنني مهما حاولت أن أتمسك به سوف يتركني، لم أكن أحبه عندما تزوجنا، ولو كان أمامي الخيار كنت سأرفض الزواج منه، ولكن مع مرور الوقت أحببته بالفعل، وكنت أحاول أن أجعله يحبني، على الأقل من أجلكما؛ ولكن انفصال عبير عن زوجها دمر كل شيء. وقلت لحالي مات أبوكِ وأمك، وقريباً سوف يتركك زوجك، لو لم أتركه أنا سوف أخسر أختي، ولم يعد لي أحد غيرها.

قررت أن أطلب من والدك أن نترك بعضنا، وأن يتزوج من عبير حتى أحافظ على علاقتي بأختي.

سلمى: كيف يا أمي تتحملين كل هذا؟! لقد سرقت زوجك وحياتك، وجعلت منا أولاداً لها.

- لم يكن أمامي خيار آخر يا ابنتي، أنا ليس لي أحد ألجأ إليه.

- لا تحزني يا أمي، أنا وسارة معك، لن يستطيع أحد أخذنا منك، ومن اليوم الخالة عبير ليس لها الحق في أن تتدخل في شئوننا، أنتِ أمنا وهذا حقك أنتِ فقط.

- تعرفين يا سلمى؟ أنا أحب قوتك هذه كنت أتمنى أن أكون في شجاعتك وأنا صغيرة.

ابتسمت لأمي وقلت لها: لا تحزني وأنا معك، اتفقنا؟

-اتفقنا

بعد أن انتهيت من حديثي مع أمي ظل كلام أبي عن الحب يتردد في عقلي، وقررت أن أبحث عن أحد أحبه بالفعل؛ لأعرف ما هذا الحب الذي يجعل الشخص يظلم غيره من أجله. رغم أن لدي الكثير من الأصدقاء على عكس سارة، لكني دوماً أشعر بالوحدة، لأن الرجل الوحيد بحياتي وهو أبي، لم يجعلني أتيقن يوماً من حبه لي؛ فأشعر وكأن لا يوجد قلب رجل في العالم أحبني، وهذا سبب الفراغ الذي يملأني من الداخل.

بدأت رحلتي في البحث عن رجل أحبه، ولكن لم أعرف كيف أجده؟ كان من في عمري كلهم لم يتجاوزوا سن الطفولة إلا بعدة أعوام، لم أجد فيهم من يجعلني أنجذب إليه.

وفي يوم وأنا في طريقي إلى المنزل بعد المدرسة رأيت لوحة كبيرة لعيادة معالج نفسي، أخذت الرقم المكتوب على اللوحة، وقمت بالاتصال وحجزت موعداً، ولكني لم أكن أعرف من أين أحضر ثمن الجلسات، فقررت أن أقوم بسرقة الخالة عبير، وكنت أظن أن بهذه الطريقة أنتقم لما فعلته الخالة عبير في أمي.

ذهبت إلى الموعد المحدد في عيادة الطبيب، ودون أن أخبر أحداً، حتى سارة لم أكن أريدها أن تراني سارقة ومريضة، هي لا تعرف أي شيء. أريد أن أحافظ على مظهر الأخت الكبيرة أمامها.

***

(12)

عيادة الطبيب النفسي

جاء اليوم المحدد لي مع الطبيب، خرجت من المدرسة باكراً، ومثل كل مرة قفزت من فوق السور، كان حارس المدرسة على وشك أن يراني، ولكن عندما سمعت صوته قادماً حاولت أن أجري سريعاً. حمداً لله لم يرني، لكنه عرف أن هناك إحدى الطالبات هربت من المدرسة، وبالتأكيد بعد مراجعة الفصول سوف يعرف أنني هذه الفتاة، ولكن لم يهمني سوي ألّا يفوتني ميعاد الطبيب.

وأنا في الطريق للعيادة كنت أحاول أن أرتب كل الكلام الذي أشعر أني في حاجة لقوله، وبالفعل جمعت في ذهني كل شيء سوف أقوله. ولكن..

جاء دورِي ودخلت إلى غرفة الطبيب، وجلست أمامه؛ بدأ يسألني:

- ما اسمك؟

- سلمى.

- كم عمرك يا سلمى؟

- أنا في بداية السادسة عشر.

- أخبريني يا سلمى ما أكثر شيء يؤلمك الآن؟

- قدمي.

- لماذا؟

- لأني قفزت من فوق سور المدرسة كي آتي إليك اليوم.

- والدك ووالدتك لا يعرفان أنك ذاهبة إلى المعالج النفسي اليوم؟

- لا، لقد جئت دون أن أخبر أحداً.

- آسف يا سلمى، أنتِ عمرك صغير، وأنا لا أستطيع معالجتك دون علم أحد من أهلك.

- لا، أرجوك، أحتاج لمساعدتك.

- أنا أتفهمك، ولكن لا أستطيع دون موافقة أحد من اهلك.

كان بإمكاني أن أشرح له أن أهلي هم السبب في مجيئي إليه، ولكن فكرة أنه رفض مساعدتي جعلت كبريائي ينجرح، رأيت حينها الطبيب وكأنه أبي، وحاولت أن أقوم باستفزازه كما أفعل مع أبي، فقلت له يبدو أنك لا تستطيع معالجة نملة؛ لذلك تحاول أن تجعل المرضي يذهبون.

ومثل أبي تماماً نظر لي ببرود شديد وهو يجاوبني بنفس طريقتي في الحديث:

- أنا لست طبيباً بيطرياً لأقوم بمعالجة النمل، ولكن بالطبع لو المرضي نمل سوف احاول أن أجعلهم يذهبون؛ لأنني لن أستطيع مساعدتهم.

خرجت من عيادته وأنا في قمة الغضب والانزعاج. وأنا في طريقي للبيت وجدت الخالة عبير في وجهي ومعها سارة؛ لقد قامت مديرة المدرسة بإخبارها أني هربت بعد مراجعة الفصول، ومعرفة أنني من قفزت من فوق السور.

- سلمى، لماذا هربتِ من المدرسة؟

- لم أكن أريد البقاء في المدرسة.

- ولمَ؟

- مللت.

- المدرسة ليست سينما تخرجي منها عندما تشعرين أن الفيلم ممل، ولقد قام والدك بتحذيرك من القفز من فوق السور، انظري كيف تعرجين وأنت قادمة مثل الدجاجة.

- لم تُجزع قدمي بسبب القفز من فوق السور؛ بل بسبب أني اسرعت في الجري بسبب الحارس.

- حقاً؟! الحارس هو المخطئ في رأيك؟!

- لا، في رأيي المدرسة هي المخطئة، لأنها قامت بالاتصال بكِ، كان من المفترض أن تقوم بالاتصال بأمي.

- ومنذ متي وأمك هي من تعتني بشئونك أنتِ وأختك؟ دائماً أنا من آتي إلى المدرسة.

- حسناً، من اليوم لا تقومي بالتدخل في شئوني أنا وسارة، مازالت والدتنا على قيد الحياة.

سارة: لمَ تتحدثين مع الخالة بهذه الطريقة؟!

- اصمتي أنتِ يا سارة، أنتِ لا تعرفين شيئاً.

تحدثت الخالة عبير وهي تجز على أسنانها وعلى وجهها الغضب:

- اطلعي إلى المنزل، وسوف نكمل حديثنا فوق.

أجبتها وأنا أدير ظهري: ليس لدي حديث أكمله معك.

*****

عندما دخلنا إلى البيت طلبت الخالة عبير من سارة أن تدخل إلى غرفتها ولا تخرج حتى تأذن لها. ثم نظرت لي وقالت:

- وأنتِ هل سوف تستمرين في هذا الوضع كثيراً؟ أنا لا أفهم سبب التغير في معاملتك لي، حسناً، حزينة على وضع أمك، فهمنا، لكن ما ذنبي أنا؟! هذا كان اختيار أمك ووالدك كان مخطئاً في الزواج منها في البداية، نعم، ولكن ماذا بعد؟! سوف تظلين تحاسبيه طوال الوقـ...

- هل يمكن أن تصمتي؟ أنتِ لا تكتفين من الكذب؟ لقد أخبرتني أمي بالحقيقة، كُفي عن الكذب، أشعر بالاشمئزاز من حديثك هذا.

- أمك من قالت لكِ أن تتزوجي زوجها.. أمك من قررت أن تضحي من أجل علاقتها بأختها.. أبوكِ من قرر الانتقام مني بالزواج بأختي.. جدك من أجبرني

على الزواج.. ألم تملّي من دور الضحية هذا؟ أنتِ من قلتِ لأمي أن تترك زوجها حتى لا يقوم بخيانتها معك، أنتِ من أخذتِ منها أولادها بحجة أنها منشغلة في عملها، وأنتِ أيضاً من قلتِ لها أن تظل أغلب الوقت في عملها كي لا تبقي في المنزل وقت وجود أبي، تعرفين شيئاً؟ أنتِ لا تحبيننا مثلما تقولين، في الحقيقة أنتِ فقط تعوضين شعور الأمومة الذي حُرمتي منه.

ما إن قلت هذه الجملة حتى قامت بصفعي على وجهي، خرجت سارة من غرفتها على صوت صرختي عندما ضُربت:

- ماذا حدث؟

لم يجب أحد منا على سؤال سارة. دخلت إلى غرفتي ولم أقل أي شيء، كنت في انتظار أمي، كي أقول لها ما حدث، وأخبرها أيضاً عن موضوع المعالج النفسي. عندما سمعت صوت أمي جاءت خرجت سريعاً لأحدثها. لكن.. وجدت خالتي قد سبقتني، كنت أظن أنها تخبرها عن الكلام الذي قلته لها، ولكن تفاجأت أنها تخبرها أني قمت بسرقتها، وأنها رأتني وأنا آخذ أموالاً من حقيبتها، صرخت أمي عليها، وقالت إن من المستحيل أن أفعل ذلك؛ كانت ثقة أمي بي هي ما جعلتني أندم على فعلتي. قلت لأمي إني أريد أن اتكلم معها بمفردنا، وأخذتني أمي إلى غرفتها، وعندما أغلقت الباب سألتني: هل حقاً قمتِ بسرقة عبير؟

لم أستطع الكذب عليها؛ أومأت برأسي أن نعم والخجل يملأ وجهي. قالت أمي إني عندما قلت لها أني لن أجعل الخالة عبير تقوم بالتدخل في شؤوننا، كانت تظن أن هذا فقط من أجل أن أجعلها تقترب مني أنا وسارة، ولكن الآن جعلتها تفقد ثقتها بي. حزينة كثيراً من كلامها هذا، قلت لها إني سوف أخبرها بكل شيء حدث دون أي كذب. عندما سمعت أمي مني ما فعلت غضبت مني وقالت إني لو كنت منذ البداية أخبرتها بكل شيء كانت سوف تقوم هي بأخذي إلى الطبيب، ولن أحتاج إلى أن أسرق وأهرب من المدرسة، وأقوم بجزع قدمي، وأيضا قالت لي إني تجاوزت حدود الأدب في حديثي مع خالتي، ومهما حدث غير مسموح لي أن أقلل من احترامها، هي من قامت بتربيتي حتى لو لم أكن أريد ذلك.

جلست أفكر في كلام أمي، ووجدتها محقة، فاعتذرت منها، وقلت لها إني لن أقوم بتكرار ذلك مرة آخري. قالت أمي:

- لا بأس، في سنك هذا تقوم البنات بفعل الكثير، وبما أنك أخذتِ القرار بالذهاب إلى معالج نفسي؛ فسوف أقوم أنا بأخذك إليه بنفسي، ولكن على شرط.

- ما هو؟

- تعتذرين من خالتك لسوء أدبك معها.

جلست أُفكر قليلاً ثم وافقت.

- وهناك شيء آخر.

- ما هو؟

- الأموال التي سرقتِها من خالتك سوف تخصم من مصروفك.

- لكـ..

- هاا؟! هذا هو شرطي لأسامحك.

- حسناً، موافقة.

خرجت وقمت بالاعتذار من الخالة عبير، وأخبرتها أن أمي سوف تخصم من مصروفي ما قمت بسرقته. قالت لي الخالة عبير إنها لا تستطيع أن تغضب مني؛ فأنا مثل ابنتها. لم أعرف هل هي حقاً تقصد ما قالت، أم فقط تقول هذا أمام أمي. قررت ألّا أنتبه لأمرها، واحاول ألّا أغضب أمي بعد ذلك.

في اليوم التالي.. قالت أمي لسارة أن تذهب للمدرسة بمفردها، وعندما سألتها سارة: لماذا؟ قالت إنها سوف تأخذني للطبيب ليفحص قدمي.

ذهبت سارة للمدرسة بمفردها بالفعل، وعندما خرجت أنا وأمي قلت لها إن عيادة المعالج النفسي في هذا الاتجاه، ولكن تعجبت من ردها:

- ألم تسمعيني وأنا أقول لسارة أني سوف أخذك إلى طبيب يفحص قدمك.

- نعم، سمعت، لكن كنت أظن أنك تقولين لها ذلك فحسب.

- أنا أفعل ما أقول، سوف نذهب لنفحص قدمك.

قالت هذا وسكتت قليلاً، ثم قالت:

- ثم نذهب للمعالج النفسي، "فأنا افعل ما اقول".

ابتسمت لها، ولأول مرة أشعر أنني حقاً قريبة منها. وكان يدور في عقلي (هل سيأتي اليوم وأكون قريبة من أبي كذلك؟!)

عندما ذهبنا للطبيب لفحص قدمي قال إنها قد تورمت، وتعجب عندما قالت أمي إني وقعت عليها أمس، وتحملت هذا الألم يوم كامل.

قالت له أمي إني كنت أعرج، لكن لم أقوم بالشكوى منها. فقال الطبيب:

- يبدو أنك فتاة قوية.

ابتسمت من هذه الكلمة، فدوماً كنت أحب أن أوصف بالقوة. ولكن همست أمي في أذني:

- بل أنتِ فتاة غبية، لأنك قمتِ بإيذاء نفسك.

قام الطبيب بتجبيس قدمي، ثم أخذتني أمي إلى المعالج النفسي، فالحقيقة كنت مرتبكة بعض الشيء، وأخاف أن يكون غاضباً ممّا قلته أمس، ولكن عندما دخلت انا وأمي إليه تفاجأت بشيء آخر. لقد كان يعرف أمي، فسرعان ما قال لها:

- نهى، كيف حالك؟ لم أركِ منذ زمن.

أجابته أمي: بخير، حمداً لله، كيف حالك يا شريف؟ لم أكن أعرف لديك عيادة بالقرب منا.

تدخلت أنا في حديثهم:

- لحظة! أنتما.. أنتما تعرفان بعض؟!

قالت له أمي: هذه سلمى، ابنتي الكبرى.

- لقد تعرفنا من قبل.

كان الخجل يملأ وجهي.

- لقد أخبرتني سلمى أنك رفضت أن تجعلها تأتي إليك دون موافقتي، ولهذا السبب جئت معها اليوم.

- أفضل شيء فعلته هو أنني رفضت مساعدتها، لولا ذلك ما كنت لأراكِ اليوم.

لم أفهم لمَ يُحدّث هذا الرجل أمي هكذا، يبدو أنه على معرفة قوية بيها.

- لِم لا يجيب أحد على سؤالي؟

للمرة الثانية الذي يتحدث فيها هذا الطبيب بأسلوب يشبه أسلوب أبي:

- لأن سؤالك غير منطقي، أنتِ قلتِ أنتما تعرفان بعض؟ وبالتأكيد لن أكون أعرف اسم والدتك ولا أعرفها، يجب عليكِ أن تسألي السؤال بهذا الشكل "من أين تعرفان بعض؟ كيف تعرفان بعض؟ منذ متي تعرفان بعض".

كانت أمي تضحك من طريقة كلامه، بينما كنت أنا أشعر أنه غليظ، أو لأنه ذكرني بأبي، فشعرت بالنفور منه. أحست أمي بما أشعر؛ فتدخلت هي وقالت:

- كانت والدة شريف مريضة عندي منذ زمن، ووقتها عرفته. ثم أضافت: متأسفة يا شريف، سلمى لا تحب المزاح.

- لا عليكِ، البنات في مثل عمرها دوماً ينفرن من حديث الكبار، حتى إذا كان مزاحاً.

- سوف أجلس أنا في الخارج حتى تنتهيا من الجلسة.

- لا، أنا أريد أن أذهب، لقد غيرت رأيي.

- لماذا يا سلمى؟! ألستِ أنتِ من قرر الذهاب لمعالج نفسي؟!

- بلى، لكني لا أريد هذا الطبيب.

نظرت لي أمي بغضب، وهمست بصوت منخفض، سلمااا، لا تحرجينني!

قال لي الطبيب شريف: هل يمكن أن أعرف لمَ غيرتِ رأيك عني؟

- لم أغير رأيي، في الحقيقة منذ أمس وأنا أشعر أنك غليظ.

أمي: سلمى

- اتركيها يا نهى، ولمَ جئتِ اليوم إذن؟

- غلظتك ليست هي من تجعلني أغير رأيي في العلاج معك.

- لكن ما الذي جعلك تغيرين رأيك؟

- أنك تعرف أمي، وسوف تخبرها بكل شيء، ولن أكون على راحتي في الحديث معك.

- لكن أنا لن أخبر أمك بأي شيء، فمن أخلاقيات المهنة ألّا أبوح بأسرار المرضي.

قالت أمي: لا تخافي من هذا الأمر، أنا لم أسألك لماذا تريدين الذهاب لمعالج نفسي، واحترمت رغبتك، فبالتأكيد لن أحاول معرفة ما قلتِ في الجلسة.

صمتُّ للحظات ثم قلت لهم بطريقة تملأها الكبرياء: حسناً، إذا كان الوضع هكذا فليس لدي مانع أن يكون هو معالجي النفسي، وأن أمنحه شرف مساعدتي.

ضحك دكتور شريف من طريقة كلامي الممتلئة بالغرور، والتي لا تشبه طريقة أمي على الإطلاق، ولكن على الجانب الآخر كانت أمي تتمني لو تضربني لأعتدل في الحديث.

نظر دكتور شريف لأمي، وقال لها إن بإمكانها أن تنتظر في الخارج حتى تنتهي الجلسة.

***

(١٣)

نـهى

بينما كانت سلمى مع شريف، كنت أنا أنتظرها في الخارج، وعقلي شارد في الماضي؛ من المفترض أن أجلس الآن وأفكر فيما سوف تقول له، وما سوف يقوم هو بتشخيصها، لكن عندما رأيت شريف ذهب عن بالي أمر سلمى، وتذكرت يوم لقائي به...

كنت وقتها أعمل بإحدى المستشفيات الحكومية، وكانت سلمى صغيرة جداً، ولم تأتِ سارة للحياة بعد، و كانت علاقتي بماجد غير مفهومة؛ أنا أحترم دوماً كونه زوجي، ولا أفعل شيئاً يزعجه مني، بينما كنت أشعر أنه لا يهتم لأمري، وكان دوماً عقلي يقول لي (بالتأكيد هو لازال يفكر في عبير)، بينما كان هذا الشعور يجرحني كامرأة، ولكن كنت دوماً أقُول بالتأكيد شعور عبير أسوأ من شعوري، لأنها تعيش مع شخص لا تحبه، بينما حبيبها تزوج من أختها، فكنت كلما شعرت بشيء تجاه ماجد زوجي أشعر بالخيانة لأختي، فعندما أجبرت على الزواج منه بسبب أبي، عاهدت نفسي أني لن أحبه يوماً؛ احتراماً لمشاعر أختي، ولكن مع الوقت لم أستطع تجنب ما أشعر به تجاهه، وأنجبت منه سارة بعد أعوام قليلة من ولادة سلمي؛ اعتقاداً أنه بهذه الطريقة سوف يهتم بنا، ويتوقف عن التفكير في عبير، لكن هذا لم يحدث.

وأنا في هذا الوقت من الحيرة والتشتت ظهر شريف.. كنت أقوم برعاية أمه عندما كانت مقيمة في المستشفى التي أعمل بها، وكان يأتي بشكل شبه يومي لزيارتها، كان دوماً يلفت انتباهي، فطريقة كلامه تشبه كثيراً طريقة ماجد، وهذا ما دفعني للحديث معه. أخبرني أنه طبيب نفسي، في وقت لم يكن العلاج النفسي شيئاً عادياً، بل كان يصفه البعض بالجنون.

ففاجأته أنا أني كنت أريد دراسة علم النفس، وكنت أحب هذه الأشياء كثيراً، لكن أبي لم يتفهم هذا، وقال لي لن أجعلك تتعلمين طوال هذه السنوات لتصبحي حكيمة في مستشفى المجانين، وقمت بدراسة الجراحة، لأن هذه كانت رغبته.

- ولمَ لم تحاولي أن تجعليه يفهم ما معني الطب النفسي؟ إن المريض النفسي ليس شخصاً مصاب بالجنون، بل هو شخص لديه اضطراب وظيفي، وقد يقوم بعادات سيئة نتيجة عوامل بيئية وظروف الحياة القاسية.

- أنا أعرف هذا، لكن والدي لا يقبل أن يقوم أحد بالنقاش معه.

نظر لي بأسف، ثم قمت بتوجيه سؤال له خطر على بالي ونحن نتحدث:

- هل عدد المرضي النفسيين كبير؟

- كلنا مرضي نفسيين.

- كلنا؟!

- نعم، كلنا لدينا شيء بداخلنا لا يعرفه أحد، إذا تركناه يتمكن منا قد يقتل أجمل ما فينا دون أن نشعر؛ بجانب أن الأمراض النفسية قد تؤدي إلي أمراض جسدية لديكِ، مثلاً الوجع الغير مرئي يتسبب في ضيق تنفس، آلام القولون، صداع بشكل مستمر. غير أن هناك أمراض نفسية تقتل صاحبها وتجعله جسداً بلا روح.

استمر الحديث فترة طويلة، وقام بتعريفي على الكثير من الأمراض النفسية. لقد أعجبت بحديثه للغاية، وكان هذا بداية الطريق بيننا.

مر يومان ولم يأتِ فيهما لزيارة والدته، لم أعرف لمَ انتبهت لذلك، فعندي الكثير من المرضي، والذين يأتي لزيارتهم أشخاص كثر. لكن انتبهت له عندما لم يأتِ! كان دوماً ردي على هذا السؤال هو أنه يذكرني بماجد، خصوصاً عندما يمزح.

وعندما جاء إلى المستشفى وجدت نفسي أتجه مسرعة نحوه:

- شريف.. آسفة.. دكتور شريف.

-لا، أنتِ بإمكانك أن تقولي لي شريف فقط.

- حسناً كنت أريد أن اتحدث معك يا شريف في شيء يخصني، هو شيء شخصي، ولا أريد أن يعرفه أحد، بما أنك طبيب نفسي، وأيضا شخص.. شخص.. شخص مريح.. مريح في الحديث وهكذا.

- نهى! لمَ تتلعثمين في الحديث، وكلامك غير مرتب، بإمكانك أن تقولي لي أي شيء يخطر على ذهنك دون هذا التوتر، لن أسيء فهمك، لا تقلقي.

- حسناً، هل لديك وقت لنجلس في مكان نتحدث بعض الشيء؟

- لا يوجد مانع.

- حسناً، سوف أقوم بتبديل ملابس المستشفى وآتي.

- وأنا سوف أنتظرك في الخارج.

خرجنا من المستشفى وجلسنا في أحد المطاعم القريبة، وجلست أحكي له قصتي أنا وأختي وماجد. وقلت له إني الآن أشعر بكره شديد لنفسي، لأني أحببت حبيب أختي السابق، وايضاً..

قاطع حديثي وقال:

- تشعرين بكره لنفسك لأنك تحبين زوجك؟ من يجب عليه أن يكره نفسه هو زوجك؛ لأنه تزوجك وهو يحب أختك، كان بإمكانه على الأقل أن يحاول أن يحبك بدلاً من أن يجعلك دوماً تشعرين بأنه يفكر في أختك طوال الوقت. نهى قولي لي بصراحة؛ هل قام بندائك باسم أختك قبل ذلك؟

- نعم.. أكثر من مرة.

- وتظنين أنك أنتِ السيئة؟ هو ليس مسموح له أن يفكر بامرأة أخرى وأنتِ زوجته، بالأخص إذا كانت من يفكر فيها هذه هي أختك.

- لكن هو يحبها قبل أن يتزوجني!

- كان يستطيع ألّا يتزوجك، أنا لا أتفهم كيف أحببتِ شخصاً مثله، إنه يجرحك كل يوم وهو ينظر إليكِ ويفكر في أختك.

كنت أحاول أن أخفي عن نفسي هذه الحقيقة، ألتمس دوماً له الأعذار، لكن شريف واجهني بكل ما أشعر به حقاً، أنا أتألم كل يوم عندما ينظر إلي وجهي ويتمني أن يكون وجه أختي، أي امرأة في العالم تُجرح إذا فكر زوجها بامرأة أخري، لكن ماذا عندما تكن هذه المرأة هي أختها؟!

حاول شريف ألّا يقسو عليّ في الحديث أكثر من ذلك، وقال إنه سوف يكون دوماً في مساعدتي عندما أحتاج له، وكان في كل مرة يأتي لزيارة والدته يجلس يسمعني، كنت أرتاح بهذا؛ فأنا لم أكن أجد أحداً أخبره عمّا أشعر به، لكن ما كنت أحاول أن أخفيه عن حالي أني أستمتع بطريقة حديثه التي تشبه طريقة حديث ماجد، ولكن بكلمات أود سماعها.

وفي يوم زال كل هذا.. لقد توفيت والدة شريف. كان الألم يملأ وجدانه، كان يحبها كثيراً، ولم يكن لديه أحد غيرها في هذه الحياة. قررت أن أرد له الجميل، وكنت أقوم أنا بسماعه، وأحاول التخفيف عنه من آلامه. ولكن حدث ما كنت أخشى حدوثه، لقد تعلّق بي شريف، وقام بمصارحتي بذلك. قلت له إني رغم عدم علاقتي الجيدة بزوجي لكني أحبه، وفي الحقيقة أنا كنت أستمتع في الحديث معك لأنك تشبهه كثيراً.

كان هذا الكلام صادماً بالنسبة له، وقال لي:

- سوف أبتعد عنكِ تماماً، ولكن لا أستطيع أن أسامحك على هذا، وسأحاول أن أنساكِ؛ ولكن سأظل أحبك.

في الحقيقة أنا أيضاً كنت أري نفسي مذنبة، أنا كنت أعرف لمَ أقوم بالحديث معه، وكان يجب التوقف عن الحديث معه بعدما شعرت بهذا، لكن.. أنا مذنبة، لا يمكنني الإنكار، ومحاولة إيجاد مبرر لتقربي منه بهذا الشكل؛ كنت أبحث فيه عمّا لا أجده في زوجي.

انقطعت أخبار شريف لشهور، كنت أحاول فيها أن أقترب من زوجي، وأجعله يحبني، وبالطبع دون فائدة؛ فعبير كانت تملأ قلبه وعقله.

وفي يوم جاء شريف إلى المستشفى الذي أعمل به، وقال لي إنه جاء ليودعني، سوف يترك القاهرة ويذهب للإسكندرية، ويقوم بفتح عيادة هناك.

قلت له: أتمنى لك التوفيق في حياتك.

نظر لي قبل أن يذهب، وقال: أتمنى أن يأتي اليوم الذي تعرفين فيه ألّا أحد أحبك مثلي!

قالها وذهب، ولم أره إلا اليوم بسبب سلمى.

يا لها من حياة غريبة، تقوم بتفرقة الأشخاص وجمعهم دون حساب.

***

(١٤)

الأسيرة

سلمى..

جلست أنا والدكتور شريف نتحدث، قلت له كل شيء. في البداية قلت له ما كنت أشعر به وأنا صغيرة، كم أحتاج لوجود الأب في حياتي، وكم مرة انتظرت أن يقترب مني أبي، ولكن هذا لم يحدث؛ وخيبات الأمل التي كانت تصيبني كل مرة.

ثم رويت له ما حدث في الشهور الماضية، وكم كانت الحقيقة صادمة، ولم يستطع عقلي فهمها أو تقبلها؛ ومن أكثر الأشياء التي جرحتني هي تغيّر مكانة الخالة عبير عندي؛ كانت هي من تفعل لي كل شيء، ولكن الآن أشعر أن هذا ليس من حقها؛ لقد سرقت حياة أمي.

بدأ دكتور شريف يعطيني بعض النصائح، ويرشدني إلى كيفية التحكم في غضبي، بدلاً من أن أقوم بجرح الناس بكلامي كلما غضبت.

كان هناك شيئان غريبان بالنسبة لي في الدكتور شريف، الأول هو أن رأيت ابتسامة على وجهه عندما أخبرته أن أمي وأبي انفصلا ولم يتعجب من فكرة أن خالتي تزوجت من أبي وكأنه يعرف من قبل أن هذا ما كان سوف يحدث، الشيء الثاني هو أن طريقته مثل أبي تماماً، ولكن يقول كلاماً أود أن اسمعه؛ هذا هو تحديداً ما جعلني أحكي له كل شيء، وأستمتع في الحديث، كنت أريد دوماً أن تأتي الفرصة التي أتحدث فيها مع أبي، وأقول له ما أشعر، وعندما كنت أتخيل نفسي وأنا أحدثه كنت أتمنى سماع كلمات محددة؛ لكن في الواقع أنا إمّا لا أستطيع الحديث معه، أو أندم عندما أتحدث لأني لا أسمع ما أود سماعه.

كان دكتور شريف غريباً، يتحدث بطريقة أبي؛ ولكن يقول الكلمات التي أرغب في سماعها.

****

بعدما انتهيت من الحديث معه، واقتنعت بالنصائح التي قدمها لي بفضل أسلوبه، لأول مرة أصبح لطيفة في الحديث، وقبل أن أخرج إلى أمي نظرت له وقلت:

- شكراً لك، لقد أحببت الحديث معك، لن تكون هذه الزيارة الأخيرة.

- لا شكر على واجب يا سلمى، يمكنك أن تأتي في أي وقت تحبينه، سوف أكون دوماً في الخدمة.

كان كلامه عادياً بالنسبة لطبيب، ومن الطبيعي أن يقول ذلك للمريض، ولكن عقلي أراد أن يفسر الكلام بشكل آخر، واعتبر ذلك اهتماماً خاصاً، من الممكن أن يكون السبب في ذلك هو رغبتي في وجود أحد يهتم بي اهتماماً خاصاً.

***

وأنا في الطريق أنا وأمي كنت أفكر في كلام أبي، وعندما قال لي أن أبحث عن شخص أحبه كي أعرف ماذا يفعل الحب في صاحبه، لم يكن يعرف أن هذه هي أسوأ نصيحة أعطاها لي.

سألتني أمي هل ارتحت في الحديث، فأجبتها: نعم، كان الحديث معه مريح للغاية، استطعت أن أتكلم بحرية.

- هل ستستمرين في الجلسات؟

- نعم، ولن أنقطع أبداً.

فرحت أمي لما سمعت، وعلا حماسي لمساعدة نفسي؛ فأنا في الفترة الأخيرة كانت أغلب تصرفاتي خطأ، بجانب حديثي المزعج مع الجميع.

الجلسة الثانية..

كنت متحمسة لها، والحماس واضح عليّ، قال لي الدكتور شريف بتعجب:

- تعرفين؟ أنتِ أول فتاة في سنك تكون لديها هذه الرغبة في إيجاد حل لمشكلاتها، بجانب أنك تدركينها جيداً، وهذا أول الطريق للعلاج، أنا اثق أنك سوف تتحسنين سريعاً.

لأنني مغرورة أسعدني هذا المديح، ولكن للمرة الثانية التي يكون فيها مجرد طبيب يقوم برفع الروح المعنوية لمريضتهُ، وأقوم أنا بفهم الكلام على أنه مدح خاص.

في هذه الجلسة وجه لي دكتور شريف سؤالاً صعباً بعض الشيء:

- ما اللقب الذي تحبين أن تعطيه لنفسك لو سُمح لكِ؟

كان يظن أني سوف أقول شيئاً مثل أجمل فتاة، الفتاة المحبوبة، المتمردة، شيئاً من هذا، ولكنني صدمته بردي:

- سوف أُسمِّي نفسي "الأسيرة... المتحررة".

- ماذا؟!

- الأسيرة... المتحررة

- اسم عميق، ماذا تقصدين به؟

- أقصد به وصف حالتي. أسرى الحرب يعيشون داخل زنازين، وتسلب منهم إرادتهم وحريتهم، ويصبحون مقيدين؛ فلا يستطيعون إكمال حياتهم بشكل طبيعي، لكن أنا متحررة، لستُ أسيرة حرب، ولكني أسيرة من داخلي؛ لا أستطيع أن أكمل حياتي بشكل طبيعي، بسبب شرخ كبير تسببت فيه الحياة، ولم يكن لي ذنب به، أكمل حياتي وأنا أشعر أني أسيرتها، ولكني في الواقع متحررة؛ فأصبح المتحررة خارجياً ومأسورة داخلياً.

- لم أكن أعرف أنك بهذا العمق يا سلمى، كنت أظن أنك فتاة طائشة تعيش سن المراهقة، ولديها بعض المشكلات جعلتها متمردة، صحيح هل تحسنت قدمك؟

- نعم، لقد تحسنت قليلاً، ولم تعد تؤلمني.

- بالتأكيد لن تهربي من المدرسة مجدداً، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لقد وعدت أمي.

تحدثنا بعض الوقت أنا والدكتور شريف، وداومت على الذهاب للجلسات، وبدأ يظهر عليّ التحسن؛ ركزت في دراستي، وتوقفت عن أفعال المراهقين، أصبحت أتكلم بأدب مع الأكبر سناً، وحاولت أن أعود لاحترام الخالة عبير، وعندما عاد أبي كان مندهشاً من هذا التغير. حتى جاء في مرة وسألني: هل أحببتِ شخصاً؟

سألته: لمَ تقول ذلك؟

- لأن الحب يساعدنا على إظهار أجمل ما فينا.

نظرت له قبل أن أجيبه، ثم قلت بعد تردد:

- نعم، أحببت أحداً.

فأعطاني النصيحة الثانية التي كان على أن أعمل بها: احذري يا ابنتي؛ فالحب مثلما يُخرج أجمل ما فينا، ولكن خيباته تظهر أسوأ ما فينا.

لم أفهم وقتها هذه الجملة، ولم أحاول أن أفهمها، كل ما كان يشغل عقلي كيف أقول له أن من أحبه يصغر عمرك يا أبي ببضعة أعوام! ماذا ستكون ردة فعل أمي عندما تعرف أني أحببت الدكتور شريف!

(١٥)

الصدمة

وفي يوم استيقظت متأخراً، كنت أشعر بالعطش؛ ذهبت للمطبخ لأحضر الماء دون أن أقوم بتشغيل النور؛ فلم يشعر أحد أني استيقظت، ولكن سمعت صوت أمي قادم من شرفة المنزل تتكلم مع أحد، ذهبت دون تفكير أسترق السمع، كانت تتحدث إلى رجل، وكانت تقول له: نعم، أنا نادمة لأنني لم أتركه منذ البداية، لقد ظلمت نفسي، أنا أعرف هذا، ولكنني كنت أخاف على البنتيْن، كنت أود أن يعيشان حياة طبيعية، لكن القدر أراد عكس ذلك، لا يهم الآن، المهم أننا عدنا لبعض يا شريف، هل تتخيل أن بفضل سلمى وشقاوتها هذه اجتمعنا مرة ثانية؟! وأيضاً بفضلك أصبحت سلمى إنسانة أخرى تماماً، هل تتخيل أنها أصبحت تقول من فضلك وبعد إذنك وحضرتك لي ولأبيها؟ وأيضاً لعبير؟ بعدما كنا نشعر دوماً أنها تبحث عن كلمات تؤلمنا بها قبل أن تتكلم.

كنت على وشك أن أفقد حاسة السمع عندما دخل إلى أذني اسم شريف، شعرت حينها أني صعقت، كيف؟!! أمي وشريف؟! كنت أظنه مجرد معرفة قديمة، متى كانا على علاقة ببعضهما؟! وكيف هذا؟!

كان عقلي يرفض تصديق ذلك، ويخترع قصص أخري لإقناعي أن ما فهمت ليس صحيحاً، رغم أن الأمر كان واضحاً، والكلام لا يحتاج لتفسير، ولكن لم أستطيع التحمل.

وفي الصباح.. كان يوم الجمعة، ولم نذهب للمدرسة أنا وسارة، كنا نجلس نتناول الفطور، أنا وكل من سارة وأمي والخالة عبير، كنت أنظر لأمي بحقد وانزعاج، وهي لا تتفهم سبب نظراتي.

بعدما انتهينا من تناول الفطور دخلت إلى غرفة أمي وقلت لها إني أريد أن أتحدث معها.

تعجبت أمي أني عدت للحديث بطريقتي الحادة كما كنت أتحدث قبل جلسات العلاج النفسي مع الدكتور شريف. قالت لي: فيما تريدين التحدث؟ ولما عدتِ للكلام بهذه الطريقة.

أخبرتها أن هناك موضوع هام يجب أن نتكلم فيه، ولكن دون أن يسمع كل من سارة والخالة عبير.

- حسنا لنذهب إلى مكان نجلس ونتحـ..

قطعتُ كلامها: لاا، أريد أن نتحدث داخل البيت لأكون على راحتي، قولي لخالة عبير أن تأخذ سارة ويذهبا إلى أي مكان.

بدأت أمي تقلق من طريقتي وانتابها الشعور بأن هناك شيء خطير حدث. خرجت أمي من الغرفة وقامت بالنداء على الخالة عبير، وأخبرتها أن تأخذ سارة ويذهبا إلى البقالة لشراء بعض الأغراض.

سألتها الخالة عبير:

- ولمَ آخذ سارة معي؟

أجبت أنا قبل أمي:

- كي تحمل معك الأغراض؛ لأنها كثيرة.

فنظرت أمي لي وقالت:

- نعم، هكذا تحديداً، لتحمل معك الأغراض.

نظرت لي الخالة عبير وقالت بتعالي:

- ولمَ لا تأتي أنتِ لحمل الأغراض، على قدمك نقش الحنة!

- لا، ولكن أنا لديّ الكثير من الواجبات، لكن سارة تنتهي من واجباتها سريعاً، أنا آخذ وقتاً طويلاً لأقوم بحل واجباتي.

لم تقتنع الخالة عبير بما قلت، وكانت تنظر لي أنا وأمي وهي تشعر أن هناك شيء ولا نريد أن تعرفه، ولكنها لم تقدر أن تثبت هذا، فأخذت سارة وذهبت للبقالة كما طلبت أمي، وتعمدت أمي أن تطلب أشياءً كثيرة كيلا تشك فينا.

بعدما ذهب كل من سارة وخالة عبير.. نظرت إليّ أمي وسألتها:

- أمي، أنتِ على علاقة بدكتور شريف؟

تغير وجه أمي ولم تجد ما تقول، فقالت:

- من أين جئتِ بهذا الكلام؟

- سمعتُك

- ماذا سمعتِ؟

- سمعتُك أمس وأنتِ تتحدثين في الهاتف، وتقولين له كيف أصبحت شخصاً آخر بفضله، وأيضاً كنتِ تقولين إنكما عدتما لبعض بفضلي؛ أنتِ كنت على علاقة به في الماضي؟

لم تجبني للمرة الثانية، فقمت بإعادة السؤال:

- أجيبيني، كنتِ على علاقة به وأنتِ متزوجة من أبي؟

- اصمتي، لا تهذي بالكلام، لا يوجد شيء مما فهمتيه.

- حسناً، قولي أنتِ لي الحقيقة.

- الحقيقة لا تخص أحداً غيري، ولا تتكلمي مع بهذه الطريقة كأنك تحاسبينني، ولا تنسي أيضاً أنني أمك.

- وأنتِ لا تنسي أنني ابنتك، وأني تحملت الكثير بسبب عبثك أنتِ وأبي وخالتي، وكتماني عن قول أي شيء لسارة، كل هذه الأشياء يجب أن تضعيها في الاعتبار قبل أن تفعلي بي هذا الشيء.

- ما الشيء الذي فعلته بك؟

- كيف تكونين على علاقة بمن أحب؟!

- بـ.. بـ.. بمن؟

- بمن أحبه مثل أبي، وأقدره وأعتبره صديقاً لي.

- وإذا أنا وهو تزوجنا مثلاً، ما الذي سيؤثر على علاقتك به؟! على العكس، ذلك سوف يقربكم أكثر.

- لكني لا أريد.

- لا تريدين ماذا؟

- لا أريد أن يصبح زوجك، وكيف كانت هناك علاقة بينكما من قبل؟ أنتِ كنتِ تقولين له أمس أنك كان يجب أن تتركي أبي من أجله، وما إلى هذا الكلام. أرجوكِ لو أن ما أفهمه خطأ قولي لي الحقيقة، لا تتركين نفسك تسقطين من نظري.

كانت أمي مترددة كثيراً في أن تتحدث، ولكن في النهاية؛ ولكيلا تتركني لعقلي يتوهم أشياءً ليست حقيقية، قامت بإخباري بكل شيء.

كنت أستمع لها وأنا أبكي بشدة، وهي لا تفهم سبب بكائي بهذه الطريقة، وجلست تقول لي:

- يا ابنتي أنا أعلم أني كنت مخطئة عندما سمحت لنفسي أن أقترب منه بعض الشيء وقتها، ولكني كنت ضعيفة، ووالدك لم يكن يشعر بأني علي قيد الحياة، وكان هذا يؤلمني.

كانت هذه أكثر الجمل التي تفهمتها منها، وأكملت حديثها تقول:

- لقد ندمت كثيراً وقتها، ولم أحاول أن أعرف عنه أي شيء تماماً منذ ترك القاهرة وذهب للإسكندرية، ثم عندما عاد إلى القاهرة وأنا لم أعرف بوجوده إلا بسببك.

ضربت على رأسي حينها وتزال أمي تنظر لي باندهاش من ردة فعلي هذه، كانت تظن أني أصبحت أراها مثل أبي، وظلت تحاول أن تُفهّمني أنها لم تفعل أي شيء يدعو للخجل، وأن أنا وسارة كنا عندها في المقام الأول.

لم تكمل حديثها حتى عادت سارة وخالة عبير للبيت، وعندما وجداني في هذه الحالة كانا مندهشين.

مسحت دموعي وقفزت من مكاني، كانت خالة عبير تنظر لأمي وتسألها: ماذا حدث؟ ولكن قبل أن تجيبها أمي التفت كل منهما لصوت صراخ سارة عندما رأتني خارجة من المطبخ وفي يدي سكين أوجهه نحو عنقي.

بدأ كل منهم يحاول الاقتراب مني وأخذ السكين من يدي، ولكن كلما اقتربوا كنت أصرخ عليهم بالابتعاد عني، وإلا سوف أقوم بإنهاء حياتي، وفي وسط كل هذا قام أبي بفتح الباب ورغم أنه كان عاد إلى عمله منذ أيام قليلة إلا أنه ولأول مرة يعود إلى البيت بعد مدة قصيرة، ورغم أني ولا مرة شعرت أن قلبه يدق حباً أو خوفاً لي، إلا أن عينيه كانتا سوف تتفجران عندما رآني وأنا أضع السكين على عنقي.

لم يقم أبي بطرح أية أسئلة، لقد اقترب مني ببطء وهو يقول لي:

- أي شيء تريدين سوف يحدث، لكن لا تؤذي نفسك، حسناً.

كان يردد هذا الكلام وهو يقترب مني، حتى أمسك السكين من يدي وألقاه بعيداً، ما إن فعل ذلك حتى هدأ وجه كل من أمي وأختي وخالتي.

كنت أعتقد أنه سوف يصرخ في وجهي بعدها، لكنه قام باحتضاني، لأول مرة في حياتي يأخذني أبي بين ذراعيه، وأشعر أني أستمع لصوت دقات قلبه، يمكن أن تكون هذه هي المرة الوحيدة بحياتي كلها التي شعرت فيها أن لدي أباً.

لم أنكر أني شعرت بالهدوء عندما ضمني إلى صدره، ولم يقم بالصراخ عليّ كما كنت أتوقع، حاولت أمي وخالتي أن يأخذاني إلى الداخل للحديث، ولكني رفضت بشدة أن أتكلم مع أحد منهما، قال لهم أبي أن يتركوني حتى أهدأ، دخلت إلى غرفتي كي أرتاح وأنام، لعل كل ذلك يكون حلماً.

وبعد بعض الوقت دخل أبي ليطمئن عليّ، ووجدني مستيقظة، ولم أستطع النوم، نظر لي ثم قال:

- لن أسألكِ لمَ قمتِ بفعل ذلك وماذا حدث. سوف أقوم بسؤالك عن شيء آخر.

- ما هو هذا الشيء؟

- هل جرحكِ الحب؟

عندما قال ذلك بدأت الدموع تملأ عيني، وأومأت برأسي أن نعم.

- حذرتك من ذلك وقلت لك؛ الحب يُخرج أفضل ما فينا، ولكن خيباته تظهر أسوأ ما فينا.

لم أستطع التوقف عن البكاء بعدما قال ذلك، نظر لي وكان يريد أن يحتضني وقتها، ولكن لا أعرف لماذا لم يفعل، ثم قال: هذه الدموع هي من سوف تعلمك الدرس، تؤلمك الآن ولكن بيدك أن تجعليها سبب استشفاؤك من الألم، أو سبب فقدانك للأمل.

قال هذا وذهب، ولم يكن يعرف ما سوف يحدث بعد ذلك.

في اليوم التالي.. حاولت الخروج من البيت قبل أن يستيقظ الجميع، ولكن قبل أن أخرج من الباب أمسكت به سارة وقالت لي: لن تذهبي.

حاولت أن أبعدها كي أخرج، وقلت لها إني سوف أعود، ولن أفعل شيئاً، لا داعٍ لأن تقلق. لكنها لم ترد الابتعاد، فقالت لي إنها لن تسمح لي بالخروج من المنزل، إلا إذا أخذتها معي إلى المكان الذي سوف أذهب له. وبعدما فقدت الأمل في أن تبتعد كي أخرج، وشعرت أنهم أوشكوا على الاستيقاظ وافقت على أن تأتي معي.

وعندما وصلت إلى المكان الذي كنت أريد الذهاب إليه، قلت لها أن تنتظرني حتى أصعد إلى إحدى صديقاتي بتلك البناية، آخذ منها شيئاً ثم أعود لها.

بعد إلحاح كثير وافقت أخيراً أن تتركني أذهب، وعندما صعدت وقمت بطرق الباب على أحد المنازل فتح لي الدكتور شريف؛ وتعجب لرؤيتي أمامه.. لم أنتظر أن يسمح لي بالدخول وقمت أنا بإعطاء هذا الحق لنفسي.

(١٦)

نـهاية سلمى

في بيت شريف.. بابتسامة خافته سألت: كيف حالك؟ بخير؟

- نعم، لكن كيف عرفتِ عنوان بيتي؟ ولمَ جئتِ؟!

- لأني أود الحديث معك، ولن أنتظر موعد فتح العيادة، كنت أود أن آتي لك أمس، لكن أمي كانت مستيقظة طوال الليل، وعندما تأكدت في الصباح أن النوم غالبها أخيراً جئت، صحيح انتبهت عليّ أختي لكني دبرت أمرها. وبالنسبة لعنوان البيت سمعت إحدى المرضي في العيادة وهي تقول إنها رأتك صدفة في المعادي قبل ذلك، واكتشفت أنك في البناية المجاورة لها، بالطبع ذهبت وسألتها أين تسكن تحديداً في المعادي، ولكن بعدما أوهمتها أني أيضاً أسكن هناك، ويمكننا أن نصبح أصدقاء.

- لمَ تأتي إلى بيتي في الأساس؟ ما هو الأمر الذي يجعلك لا تنتظرين ميعاد الجلسة؟

- الألم.

- أي ألم؟

- الألم الذي لم يجعل عيني تعرف النوم، وكان على وشك أن يجعلني أنهي حياتي، لولا أبي، تعرف لأول مرة اندم أني لم أستمع لنصيحة أعطاني إياها.

- أنا لا أفهم شيئاً، هل بإمكانك أن توضحي ما تريدين قوله؟

- قبل أن يسافر أبي المرة السابقة قال لي إن "الحب يُخرج أفضل ما فينا، ولكن خيباته تُظهر أسوأ ما فينا".

- آه فهمت، أنتِ أحببتِ شخصاً ما أليس كذلك؟

- نعم.

- ولِمِ لمْ تخبريني من قبل؟ من هو هذا الشاب؟ معك بالمدرسة؟

- لا.

- إذن من؟ وماذا فعل جعلك حزينة بهذا الشكل؟

لم أجب بأي شيء، حتى انتاب الدكتور شريف القلق من صمتي:

- لما لم تجيبي يا سلمى؟ أخبريني، هل حدث شيء؟ لا تقلقي لن يعرف أحد بشيء، ولكن يجب أن أطمئن عليكِ.

سعد قلبي لرؤيته خائفاً عليّ، وقلت له:

- هل تخاف عليّ يا شريف؟ أقصد يا دكتور شريف.

- بالتأكيد يا سلمى.

- حقاً؟!

- نعم، أنتَ غالية عندي، لستِ مجرد مريضة؛ بل أنا.. أنا أعتبرك مثل ابنتي.

كنت سعيدة بكلامه إلى أن قال ابنتي.

- مثل ابنتك فقط؟!

- اممم، وأيضا مثل أختي الصغيرة.

زاد من استفزازي بهذه الكلمات، فبدأت اتأفف من حديثه، ولكن عندما شعر أني انزعجت -رغم أنه لا يعرف سبب انزعاجي-، لكنه حاول أن يغير من حديثه، فقال:

- أنتِ فتاة جميلة وذكية وشجاعة، كان فقط ينقصك بعض الاهتمام، لتصبحي أفضل فتيات العالم أجمع.

كان يعرف أن هذا الكلام يشبع غروري، وأن بهذه الطريقة سوف أهدأ، وأبدأ الحكي له عمّا حدث معي، لكنه سرعان ما أفسد خطته هذه عندما قال:

- أنا أهتم بكِ أكثر من باقي الحالات التي تأتي لي، تعرفين لماذا؟

- جاوبت بحماس لماذا؟!

- من أجل أمك.. في الماضي كنت أنا وأمك صديقين مقربين، لم يكن يوجد أي أحد يسمعني ويفهمني مثلها، لذلك أنا أحبك يا سلمى لأنك جزء منها، فأعتبرك مثل ابنتي تماماً.

بدأت أنظر إلى كل شيء أمامي، حتى وجدت زهرية على الطاولة الموجودة ببيته، فأمسكتها وألقيت بها على الأرض، فانكسرت إلى أجزاء كثيرة ومتباعدة. تفاجأ الدكتور شريف ممّا فعلت، ولم يتفهم سبب ذلك، لم يعلق بأي شيء، كان ينظر لي وينتظر أن أقوم أنا بقول شيء أفسر به ما فعلت.

لم أفهم ما بداخلي وقتها، كنت فقط أشعر أن هناك طاقة من الغضب لا أستطيع تحملها، وكان كسري للزهرية طريقة للتنفيس عن غضبي هذا، ثم شعرت بعدها أني أريد الصراخ بقوة للتفريغ عن ألم قلبي، ففعلت ذلك دون أن أهتم أني ببيت دكتور شريف، وأن الوقت باكراً. ظللت أصرخ وأصرخ، وكلما حاول أن يقوم دكتور شريف أن يجعلني أهدأ كانت تتعالي صرخاتي، إلى أن قرر أن يقوم بالضغط على جرحي بقوله "اهدئي يا سلمي يا بنتي، اهدئي يا حبيبتي".

توقفت عن الصراخ ونظرت له وقلت: حبيبتك؟ كنت أود أن أكون حبيبتك.

هذه المرة لم يحاول عقلي بإقناعي بشيء غير الحقيقة، بل بدأ يواجهني بكل شيء (كانت كذبة يا سلمى، كان وهماً عيّشك إياه قلبك، أنتِ لستِ سوي طفلة في عيون هذا الرجل، إنه يحب نهى، يحب أمك، وأبوكِ يحب عبير خالتك، ولكن من يحبك أنتِ أنتِ؟ لم يحبك أحد). كان هذا الكلام يحدثني به عقلي، وفي نفس الوقت لا تستطيع عيني التوقف عن البكاء بسبب انكسار قلبي، ويدي التي كانت ترتجف، وأنفاسي التي لا أستطيع التقاطها.

أصبح كل عضو في جسدي يتألم، حتى وقعت في الأرض، أعلن جسدي الانهيار وفقدان الأمل كما قال لي أبي؛ الدموع استشفاء من الألم أو فقدان الأمل.

حملني الدكتور شريف ليذهب بي إلى المستشفى، وأنا على كتفيه بدأت افوق بعض الشيء، كنت أشعر به وهو يحملني ولكني لا أستطيع الحديث، عندما وضعني داخل السيارة شاهدته سارة، لم تكن تعرف من هو، ولمَ أنا غائبة عن الوعي، فظنّت أنه يحاول أن يؤذيني؛ فبدأت تصرخ عليه ليتركني.

كانت أول مرة يرى فيها الدكتور شريف سارة، ولكنه عرفها لأنها كانت تشبه أمي كثيراً، ولأني أخبرته عن عمرها استنتج أنها هي؛ لذلك قال لها: اهدئي يا سارة أنا سوف آخذ سلمى إلى المستشفى.

فاندهشت سارة عندما قال اسمها، وسألته: من أين تعرفني؟ ولمَ تأخذ اختي إلى المستشفى؟ ماذا حدث لها؟

أخبرها أن بالتأكيد لدي انهيار عصبي، لم تكن سارة تعرف ما يعنيه هذا، كان عمرها لازال صغيراً، فقال لها الدكتور أن تأتي معه، وهناك سوف تفهم كل شيء. لكن سارة لم تطمئن لركوب السيارة مع رجل غريب، فأصرت أن تجعله يخرجني منها؛ ولكي يجعلها تهدأ قام بالاتصال بأمي وأخبرها كل شيء، وأخبرها أن سارة أيضاً معه.

في البداية خافت أمي عندما عرفت أني غائبة عن الوعي، ولكنه أخبرها أنه سوف يذهب بي إلى المستشفى، وأن تقوم هي باللحاق بنا، ولكن يجب عليها أن تقول لسارة أن تطمئن وتذهب معه، أعطي الهاتف لسارة لتحدث أمي؛ وقالت لها أمي أن تذهب معه ولا تخاف، وأنها سوف تأتي إليها في الحال. اطمأنت سارة عندما حدثتها أمي، وذهبت مع الدكتور شريف للمستشفى بسيارته.

كنت أنا غائبة عن الوعي، ولا يمكنني أن أسمع كل هذه التفاصيل، ولكن في المستشفى عندما أفقت أول من وجدت بجانبي هي سارة، وأخبرتني بكل شيء. بينما كانت أمي والدكتور شريف مع الطبيب في الخارج يسألانه عن حالتي. عندما عادا كان يبدو على وجه أمي القلق والخوف عليّ، وظلت بجانبي هي وسارة، بينما كان يقف الدكتور شريف في نهاية الغرفة بعيداً.

كنت كلما أنظر له هو أو أمي يتألم قلبي، لذلك حاولت ألّا أنظر لأحد منهما، وكنت فقط أحدث أختي، وأحاول أن أطمئنها عليّ، ولكي أنسي ما كنت به اليوم

وأمس كنت أسألها عن المدرسة، وعن أصدقائنا، وقلت لها إننا عندما أخرج من المستشفى سوف نذهب -أنا وهي- لمدينة الألعاب مثلما كنا صغيرتين، ولكن بمفردنا، لتكن ذكري لنا وحدنا، كانت سارة سعيدة بهذا، وتنتظره بشدة؛ ولكني لم أستطع أن أوفي بوعدي لها.

سامحيني يا سارة..

قال دكتور شريف لسارة ولأمي أن يخرجا من الغرفة ليتحدث معي، وبالفعل خرجا، وجلس دكتور شريف بجواري، وسألني كيف حالي الآن، لم أنظر له وأنا أجيبه:

- أصبحت أفضل الآن.

- أريد أن أسألك سؤالاً يا سلمى، ويجب عليك أن تجيبي بصراحة، لأن إجابتك سوف يتوقف عليها علاجك.

وأنا لازالت لا أنظر إليه: ما هو سؤالك؟

- أنتِ تحبينني؟

لمعت عيني مما قال، ودقات قلبي تسارعت:

- ما هذا السؤال السخيف؟! لمَ تسألني مثل هذا السؤال؟ أنا مثل ابنتك! ألم تقل أنت ذلك؟!

- نعم، ولأني عندما قلت ذلك قمتِ بالانهيار، وتكسير أشياء بمنزلي، وقبل أن تغيبي عن الوعي قلتِ لي (كنت أود أن أكون حبيبتك).

- أنا قلت ذلك؟! لا أتذكر!

- لا تكذبي، لقد أخبرتني أمك بما فعلتِ أمس، وأنك عرفتِ كل شيء، و ردة فعلك المبالغ فيها، كل هذه الأشياء ما معناها؟

- حسناً.. حسناً، أنا أحبك، ماذا بعد؟! هل سوف يغير ذلك من شيء؟! لما جعلتني أتعلق بك وأنتَ تحب أمي؟! لمَ كنت ترضي غروري دوماً بكلامك اللطيف وأنت تعرف أني أحتاج لسماعه؟

- ببساطة لأني المعالج النفسي لك، ودوري هو أن أساعدك لتصبحي أفضل، وأصبحتِ أفضل في البداية، لكنك ترجمتِ هذه المساعدة إلى حب، أنا لا ألوم عليكِ؛ لكن يجب عليكِ أن تعرفي أن ما تشعرين به ليس حباً، بل تعلق بشخص عوض عندك احتياجاً لشيء ما.

كنت أحاول أن أحبس دموعي وأنا أسمعه؛ كي لا أقوم بجرح كرامتي أكثر من ذلك.

- سلمى أنا سوف أخبرك بشيئين أصعب من بعضهما، ولكن إذا كنتِ تريدين أن تصبحي أفضل بالفعل يجب عليكِ أن تتقبليهما، الشيء الأول هو أني لن أكون طبيبك منذ الآن.

- لم يعد يهم، لا أريدك بعد الآن.

لم يعلق:

- الشيء الثاني هو أنك يجب أن تذهبي إلى مصحة نفسية.

- بالتأكيد لا.

- اسمعي يا سلمى، أنتِ الآن في المستشفى؛ لأن لديكِ انهيار عصبي، وفي الأمس حاولتِ الانتحار، ماذا لو لم يلحق بكِ والدك؟ ماذا لوكنتِ قتلتِ نفسك؟! هل تريدين أن ننتظر ونشاهدك وأنتِ تُنهين حياتك؟! أنا أستطيع أن أجعلك تدخلين المصحة ودون موافقتك بعد إثبات أنك حاولتِ الانتحار، لكن لا أريد فعل ذلك، مثلما قررتِ أنتِ بدء العلاج النفسي معي، أريدك أن تأخذي أنتِ قرار الدخول للمصحة؛ لأننا لن نقوم بمشاهدتك وأنتِ تنهين حياتك.

بعدما أنهي حديثه خرج من الغرفة وتركني أفكر.

***

جلست أفكر فيما قال، وأتذكر كل ما حدث معي خلال الفترة الماضية، من معرفة زواج أبي والخالة عبير، والذهاب للطبيب النفسي، ومعرفة أنه يحب أمي، وكل شيء حدث معي منذ قررت مواجهة مشاكلي، وعندما قررت أن أهرب

من المدرسة وأعود لإخبار أبي بما أشعر به تجاهه، وأن إهماله لنا يزعجني؛ وقتها عرفت كل شيء، ودمرت حياتي؛ يا ليتني عشت في جهلي كما أنا، لا أعرف شيئاً، وكل مشكلاتي هو إهمال أبي وأمي لنا.

كانت مشكلتي وقتها أبسط؛ يا ليت كانت هذه هي الحقيقة مثلما كنت أظن. وفي النهاية أخذت القرار؛ سوف أذهب إلى المصحة، ولكن ليس رغبةً في العلاج، بل هروباً من الحياة، سأذهب إلى هناك حتى لا أضطر للاستيقاظ كل يوم والنظر في وجهيْ أمي والخالة عبير، حتى لا أنظر لسارة وأحسدها على جهلها لحقيقة بيتنا هذا، كي لا أكره اليوم الذي يعود فيه أبي إلى المنزل كل شهر.

سوف أذهب إلى هناك؛ هروباً وليس للعلاج.

انتهت مذكرات سلمي .....

(١٧)

عملية سارة

أحمد

بعدما انتهيت من قراءة المذكرات ظل يراودني سؤال (كيف ماتت سلمي؟)

لم أستطع التوقف عن تخيل أشياء كثيرة قد تكون حدثت لها بالمصحة، ولكن كلها أشياء غير منطقية. هل ممكن أن تكون ماتت هكذا دون سبب؟ لا، أنا أشعر أن هناك شيء وراء موتها.

قررت الذهاب للخالة نهي، وأتظاهر بأنني ذاهب لإخبارها أن العم ماجد توافقت أنسجته مع سارة، وأنه سوف يتبرع لها.

وبالفعل.. ذهبت لها، ولكنها كانت تعرف، لقد سبقني العم ماجد وقام بإخبارها. كانت سعيدة، وعاد لها الأمل، وكنت أنا سعيداً لرؤيتها قد تحسنت.

جلست بعض الوقت أمامها لا أجد ما أقول، حتى قامت هي بسؤالي:

- هل انتهيت من قراءة مذكرات سلمي؟

- آآاا.. نعم.

- هل لديك شيء تريد أن تقوله؟

- في الحقيقة كان هناك سؤال يراودني منذ أن أنهيت القراءة.

قلنا نحن الاثنان في وقت واحد: "كيف ماتت سلمى"

نظرت لها باندهاش:

- كيف عرفتِ أنني سوف أسأل هذا السؤال؟

- ببساطة لأنك عرفت كل شيء حدث معنا، والشيء الوحيد الذي لا تعرفه هو ما حدث بعد دخول سلمى المصحة.

- هل ستخبرينني؟

- نعم، ولكن ليس الآن.

- متي إذن؟

- بعد أن تُشفى سارة، لا أريد أن أتذكر هذا الألم الآن، أريد أن أتفاءل بأن سارة سوف تصبح بخير، لكن أنا عندي لك سؤال.

- ما هو؟

- كيف لم تعرف أن سارة مريضة كبد؟ وتدهورت حالتها بهذا الوضع؟ ألم تكن تهتم بها؟

- لا، أقسم لكِ أني لم أهملها قط، ولكن هي ولا مرة قالت إن هناك شيء يؤلمها، كانت شديدة الكتمان، ودليلاً على ذلك أني لم أعرف شيئاً عن ماضيها إلا بعد قراءتي لمذكرات سلمى.

- حسناً، لِم توترتَ إلى هذا الحد؟ كان مجرد سؤال.

- لا أعرف، ولكن منذ أن قامت بهذا الحادث وأنا ألوم نفسي لأني لم أقم بتوصيلها وقتها، أنا حقاً أحبها، تعرفين أني كنت اجمع المال لأقوم بفتح لها روضة الأطفال التي كانت تحلم بها؟

- لكن سلمى هي من كانت تود أن يكون لها روضة أطفال، سارة تحب الرسم، وكانت ترغب في أن يكون لها معرض؛ لرسوماتها.

كنت سأتعجب من كلام الخالة نهى؛ لولا أن قال لي العم ماجد أن سارة بعد موت سلمى أصبحت تعيش وكأنها سلمى:

- نعم يا خالة نهى، لكنها كانت تود تحقيق أحلام سلمى؛ لتشعر دوماً بوجودها على ما أظن.

- فهمتك يا بني.

يوم عملية سارة

ذهبت أنا وكل من الخالة نهى والخالة عبير والعم ماجد إلى المستشفى عند سارة، وبدأ الممرضون تجهيز العم ماجد للعملية.

كان الوضع موتراً بعض الشيء، لم يكن العم ماجد يتحدث مع الخالة عبير تماماً، وكان يبدو أنها منزعجة من ذلك، ولكن لا تستطيع أن تبوح بما يدور في عقلها.

قررت أن أتحدث معها، ولكن بعد أن تمر عملية سارة أولاً، فذلك هو كل ما يشغل عقلي الآن.

***

دخل العم ماجد وسارة إلى غرفة العمليات، كنت متوتراً جداً أنا والخالة نهى، فجلسنا طوال وقت العملية ندعي لهما بالشفاء، ونقرأ القرآن؛ على أمل أن يستجيب الله الدعاء، ويشفي سارة، وتعود لنا. وكنت كلما يزيد القلق في قلبي أتذكر الرجل الذي قابلته في المقهى وهو يقول لي "احمد الله يا أحمد"؛ فجلست أقول كثيراً "الحمد الله دائما وأبداً" على أمل أن يراني الله راضياً في جميع الأحوال، فلا يحملني ما لا طاقة لي به.

***

بعد مرور سبع ساعات خرج كل من سارة والعم ماجد من غرفة العمليات، وعندما خرج الطبيب ذهبت له مسرعاً لأسأله عن حالتهما؛ فقال إنهما سوف ينتقلا الآن إلى العناية المشددة، وبعد ثلاثة أيام سوف نعرف هل نجحت العملية أم لا، ونحدد ما سوف يحدث بعد ذلك.

بعد مرور يومين خرج العم ماجد من العناية المشددة، وانتقل إلى غرفة عادية، بينما كانت سارة أمامها يوم آخر في العناية.

ذهبت أنا والخالتان لنطمئن على وضعه، كان يردد طوال الوقت اسميْ سارة وسلمى، مما جعل الخالة نهى تنفجر بكاءً، فأخذتها للخارج وأقنعتها أن تذهب للمنزل، ولكن الخالة عبير قررت أن تظل.

(١٨)

حديث بين أحمد وعبير

بعدما رحلت الخالة نهى، كانت الخالة عبير تجلس بجوار العم ماجد في الغرفة تنتظر أن يفيق، كانت تحدثه وهو شبه غائب عن الوعي، فسمحت لنفسي أن أسترق السمع، وأعرف ما تقول له، فسمعتها تتحدث له بصوت خافت يميل للبكاء:

- اشتقت إليك يا ماجد، اشتقت لأنفاسك ولأيامنا معاً، لقد لمتني على شيء لم أكن السبب به، أنا كنت أحب سلمى وسارة كثيراً، عشت معهما ما لم تعشْه أنت ونهى، كنت لهما الأم والأب، وكانا لي كل شيء، لمَ تركتني وكرهت حبنا؟ لمَ لمْ تلُمْ نهى على أنها احبت الطبيب هذا؟ وأخذت ابنتها إليه؟ وجعلها تتعلق به؟

لم أستطع التحمل، وقررت أن أتدخل وأجيب أنا بدلاً من العم ماجد:

- لأنك أنتِ من حرمتِ بناته منه.

- ماذا تفعل هنا؟ كنت تتجسس عليّ؟

- لا، لكن لم أتحمل أن أسمعك وأنتِ تكملين دور الضحية بهذا الشكل.

- ألم أقل لك إنك حتى تنتهي من قراءة المذكرات غير مسموح لك الحديث معي هكذا؟!

- هل أنتِ متأكدة أنك قرأتِ المذكرات؟ لقد انتهيت من قراءتها، ولا أعرف كيف مازلتِ ترين نفسك بريئة من كل شيء هكذا؟!

- نعم، أنا بريئة، لم أفعل شيئاً، لو أني فعلت لكانت قاطعتني أختي، لكنها لم تفعل؛ لمَ ترونني مذنبة؟! هل لزواجي من حب حياتي الذي حرمت منه؟!

- حب حياتك هذا كان زوج لأختك.

- لكنه كان حبيبي قبل أن يتزوج منها، لمَ لمْ يقل لها أحد "يجب عليكِ ألّا تتزوجيه"؟!

- لأنها لم تستطع أن ترفض كما لم تستطيعي أنتِ رفض الزواج من زوجك السابق، لمَ تبحثين عن أشياء تبرر فعلتك؟ جعلتِ أختك تترك زوجها، وجعلت من بناتها بناتك، وجعلتِها لا تعود للمنزل طوال الليل من أجل أن تقضي أنتِ وقتاً مع زوجك، جعلتِ سارة وسلمى يُحرمان من أمهما وأبيهما، وبسبب كل هذا تدمرت سلمى، وتعلقت بالطبيب النفسي؛ لأنها رأت فيه الأب الذي حُرمت منه بسبب أخذك أنتِ له وكرهه لأمها.

- أنت تتكلم بعيون سلمى، تعرف؟ عندما قلت لك أكمل قراءة المذكرات كنت أظنك سوف تري الأشياء بوضوح؛ لأنك خارج القصة، لكن يبدو أنك تأثرت بطريقة سلمى في السرد.

- حسناً، أنا عرفت الأشياء من نظر سلمى، وسمعتها من العم ماجد، وكان نادماً ويري أن سلمى محقة. ماذا عنك؟ أنا أود سماعك كيف ترين ما حدث.

- أري ألّا أحد يراني، كلكم تعاطفتم مع نهى؛ لأن زوجها تركها وتزوجني، ولكن لا أحد يعرف أنا ماذا حدث لي. لقد كنت مثل سلمى وسارة في طفولتي، ليس لدي أب، كان موجوداً، لكنه يضربني ويحبسني دائماً، ويمنع عني كل شيء، لا أتذكر مرة واحدة قام بضمي فيها إلى ذراعه، وتقبيل رأسي مثلما يفعل الآباء، كان كل ما أنتظره طوال حياتي هو أن يأتي اليوم الذي أتزوج فيه ماجد، كنت أحبه كثيراً، اعطيته الحب الذي لم أعطه لأبي، بداخلي كان كل شيء في حياتي، ولكن بفضل أبي سلب مني هذا الحلم؛ لقد قرر أبي بالنيابة عني بمن أتزوج، وعندما رفضت قام بضربي، انظر إلى هذه العلامة بيدي، انظر، إنها من أبي، كنت أتركه يضربني ولا يهمني؛ لأني ليس لدى أي استعداد أن أترك ماجد مهما حدث. وفي النهاية لقد زُوّجت غضباً عني؛ كان أبي على وشك قتلي إن لم أوافق على الزواج، وأنا أتحمل كل هذا الألم دون أن يقف أحد بجانبي، قام ماجد باعتبار أنني خنته وتزوجت بإرادتي، ورفض حتى أن يصدق أنه كان غصباً عني، وبعد الزواج كان زوجي يكمل ما كان يفعله أبي معي، كان يضربني ويهينني، ووسط كل هذا جاءني خبر أن ماجد سوف يتزوج، ومن مَن؟! من أختي! أي فتاة في زواجها تكون سعيدة وهي تقوم بتجهيزات الزواج، وأيضاً تكون سعيدة في تجهيزات زواج أختها، إلا أنا؛ كنت أُقهر في الحالتين. وبعد ذلك أيضا لم أنجب أطفالاً، كنت

أُضرب كل يوم؛ لاعتقاد زوجي أنني أنا من لا أريد الإنجاب منه، لأنه كان يعرف أني أكرهه، رغم أني فعلاً كنت أكرهه، لكن كنت أتمنى أن يصبح لدى طفل، وبعد كل هذا طُلّقت لعدم إنجابي.

تألمت كثيراً في طفولتي، وفي شبابي، سنوات كثيرة مرت دون أن يشعر أحد بما أعيشه كل يوم. وفي النهاية لم أستطع أن أشاهد نهى وهي تعيش مع أكثر شخص أحببته.

عندما انفصلت عن زوجي كان والدي ووالدتي قد تُوفيا، ولم يعد لي أحد سوا نهى، وكنت أعيش في بيت بجوارها، وأشاهدها كل يوم وهي تعيش مع ماجد، وأنجبت منه بدل الطفل اثنين.

لم أكن أحقد عليها أو أتمنى لها الشر، كنت سأكون سعيدة جداً لها أياً كان والد بناتها، كنت سأحبهم مثل بناتي، ولكن فكرة أن زوجها هذا هو ماجد كانت تؤلمني. لم أكذب عليها عندما أخبرتها أنها إذا لم تترك ماجد سوف يخونها معي؛ بل حقاً هذا ما كان سوف يحدث لو لم تتركه.

بعد انفصالي كان يأتي كثيراً إليّ بحجج مختلفة، وكنت أعرف ما يريد، وفي الحقيقة لم أستطيع أن أُبعد عن عقلي التفكير به لقد.. لقد.. لقد كنت أحبه، تفهمني يا أحمد؟ أحبه وليس لي أحد؛ أحبه مثلما تحب أنت سارة، ومثلما أحبت نهى شريف بعد ذلك، وتعلقت به سلمى أيضاً.

لو كنت حاولت قتل نفسي مثلما فعلت سلمى عندما عرفت أن شريف يحب أمها ما كان لأحد أن يلوم عليّ، الآن ماذا يفرق حبي لماجد عن حبكم أنتم؟!

- أنا حزين جدا عليكِ، أنتِ محقة، كل شيء نراه من وجهة نظرنا نحن، هذه الدنيا هي الجاني الحقيقي.

هي من تجعلنا نحب أشخاصاً ليسوا لنا، وتفرقنا وتجمعنا مرة أخري، كلنا نظرنا لك على أنك أنانية، ولم ينظر أحد لأنك إنسانة تخطئ أيضاً، وتتألمين، المخطئ كان العم ماجد، لأنه قرر الانتقام منك عن طريق أختك، فانتقم منكما أنتما الاثنتين، ومن بناته، وأيضاً من نفسه.

لقد عاقبه الله على ذلك بخسارة سلمى، وندم على ما فعل؛ تركك لأنه لم يقدر أن يتمتع بحياته معك بعد خسارة ابنته. أحياناً عندما يموت أحبابنا لا يملك قلبنا القدرة على الحب مرة ثانية.

أنا آسف لك يا خالة عبير بالنيابة عن الحياة، وأتمني لو كانت سلمى حية لأعتذر لها أيضاً، وأود ألّا يحرمني الله من سارة؛ كي أهب عمري كله لها تعويضاً عمّا عاشت في الماضي.

- تعرف يا أحمد؟ أنتَ شاب جيد، أنا أتمنى ألّا يحدث أي شيء يفرقك أنت وسارة طوال حياتكما.

"وأنا أيضاً أتمنى ذلك". من قال هذه الجملة هو العم ماجد؛ لقد أفاق، وقال لنا إنه سمع كل الحديث الذي دار بيننا أنا والخالة عبير، وأضاف أننا إذا رغبنا في معرفة من المذنب في هذه القصة؛ فهو.

- كان يجب عليّ أن أُشبِع ابنتي حباً قبل أن أنصحها بالبحث عن الحب، فتقوم بالبحث عن أب وليس حبيب، عندما قرأت مذكرات سلمى أدركت أنها تعلقت بشريف لأنه يصغرني بسنوات قليلة، فشعرت معه بما كانت تفتقده مني. أنا الجاني يا أحمد، أنا الجاني يا عبير، انتقمت منك عن طريق أختك، ولم أحارب من أجلك كما فعلتِ أنتِ وقتها.

وكنت الجاني على نهى أيضاً؛ عندما تركتها بعدما تعلقت بي، لأعود مرة أخري لأختها، كنت أفعل ما أريد فقط، ولا أفكر فيمن حولي. كان يجب أن ينتقم الله مني؛ وأموت أنا بدلاً من سلمى، كانت صغيرة ولم تعش حياتها بعد، لقد انتقم الله مني بحرماني منها، لأني لم أحافظ عليها، ولم أكن لها أباً.

أحمد: يكفي أنك أدركت ذلك، واعترفت به، ما لم تستطع إصلاحه مع سلمى مازال الوقت معك لإصلاحه مع سارة، لقد قمت بإنقاذ حياتها، وإن شاء الله تتحسن وتصبح بخير، وأعدكما أن أجعل سارة تسامحكم جميعاً، وتعود إليكم مرة أخرى بعدما يكتب لها الله الشفاء.

للمرة الثانية يستجيب الله دعوتي، وقتها دخل الطبيب حسام وأنا اقول هذه الكلمات إلى غرفة العم ماجد، وقال إن نتيجة الفحوصات الجديدة ظهرت، لقد نجحت عملية سارة، وسوف تخرج غداً من العناية المشددة.

سجدت في الأرض لله شاكراً فضله. وكان العم ماجد تتساقط دموع الفرح من عينيه، ثم قالت لي الخالة عبير:

- لقد تقبل الله دعوتك، ويجب عليك أن تفي بوعدك، وتعيد سارة لنا مثلما قلت.

- أعدك بأن أفعل ذلك عقب خروجها من المستشفى.

(١٩)

ما وراء موت سلمى

يوم خروج سارة من العناية المشددة..

ذهبت إلى منزل الخالتين لآخذهما إلى المستشفى؛ لنكون في استقبال سارة عند خروجها، كان الحماس يملؤنا جميعاً.

عندما وصلنا للمستشفى كانت سارة لم تخرج بعد، فجلسنا في غرفة العم ماجد. قررت أن آخذ الخالة نهى للخارج، وأترك الخالة عبير مع العم ماجد بعض الوقت، لعل لديهما حديث يودّان قوله قبل خروج سارة؛ فأخذت الخالة نهى بحجة أن نذهب لشرب شيء ما إلى أن تخرج سارة.

جلسنا نحتسي القهوة، وأنا جالس معها سألتها:

- ألن تخبريني بما حدث مع سلمى؟ لقد تحسنت سارة، أعتقد من الأفضل أن تخبريني الآن قبل خروجها؛ بالتأكيد لن نستطيع الحديث أمامها.

- أتعجب من مدى اهتمامك؛ هل هو فضول أم شيء آخر؟

- في الحقيقة هو فضول وشيء آخر؛ لا أريد أن يكون هناك أي شيء في حياة سارة لا أعرفه، وحياة سلمى هي من شكلت سارة، أود أن أعيش معها وأنا أعرف كل شيء، وأن أشاركها حزنها، لا تعلمين.. الفترة الماضية عندما كنت أعود إلى البيت ولا أجدها بما كنت أشعر، وعندما كنت أفكر أنها قد لا تعود مرة أخري كنت أموت كل يوم ببطء.

- تعرف؟ أنا سعيدة لأن الله عوض سارة بك يا أحمد.

ابتسمت لها، ثم قلت:

- أخبريني قبل أن تخرج سارة.

- حسناً، سوف أخبرك. عندما دخلت سلمى إلى المصحة كانت تتمني الموت كل يوم؛ لقد ذهبت للمصحة حتى لا تراني مرة أخري.

قررتْ وقتها أن تترك لنا مذكراتها، والتي كان بها كل شيء حدث؛ كي تعفينا من الأسئلة، من خلال المذكرات عرف كل منا إجابات الأسئلة التي تدور في عقله، أنا عرفت أنها كانت تحب شريف، وعبير وماجد عرفا قصتي مع شريف، وقصة سلمى معه أيضاً، وهي تعطيها لنا قالت "هذه كي أعفي أمي من الأسئلة التي سوف توجه لها، وأيضاً ليعرف كل منكم كيف كنت أراه، وكيف دُمرت بفضلكم".

كان ذلك أفضل شيء فعلته بالفعل، لم أكن أستطيع أن أقول لهم عن شريف.

لكن أوصت بألّا تعرف سارة شيئاً؛ كي لا تدمرها الحقيقة، كما حدث معها. وعندما سألت سارة عن سبب بقاء سلمى في المستشفى، لم نقل لها إنها في مصحة للعلاج النفسي فقط، قلنا لها إنها مريضة بعض الشيء، وتحتاج إلى فترة علاج داخل المستشفى لتصبح أفضل.

بعدما قرأ ماجد المذكرات كان يشعر بالذنب، وكان يلوم نفسه؛ فهو من قال لسلمي أن تبحث عن الحب، قرر أن يصلح هذا بالتقرب من سارة، كان يخاف على سارة كثيراً من أن يحدث لها شيء مثل أختها. وبفضل ذلك، ورغم عدم وجود سلمى بجوار سارة مثل المعتاد، لكن عوّض ماجد هذا بتقربه منها. بينما كانت عبير تنتظر أن تخرج سلمى لتقول لها أنها ليست سيئة كما تراها.

- وماذا عنك أنتِ يا خالة نهى؟

- أنا كنت أكره اليوم الذي عاد فيه شريف إلى القاهرة، وذهبت له سلمى، عندما جاء للحديث معي بعدها، أخبرته أني لا أستطيع أن أراه مرة ثانية، بدأ يلومني، ويقول لي بأني أتخلى عنه مرة أخرى، مثلما فعلت في الماضي، ولكن لم أقدر أن أفعل هذا بابنتي، يكفي أنها دخلت للمصحة بسبب هذا، وأيضاً أثر عليّ ماجد عندما وجدته ترك عبير، وقال لي حينها "لن ألومك على حبك لشريف، لكن يجب عليكِ أن تختاري ابنتك كما فعلت أنا الآن، لقد تركت عبير التي في الماضي تركتك من أجلها، ويجب أن يختار كل منا بناته، لأن لا ذنب لهم في حبنا هذا".

تركتُ شريف وأنا على يقين أن ذلك هو الصواب، وقتها كرهني، وقرر هذه المرة أن يترك مصر كلها، ولم يعد إلا عندما عرف بوفاة سلمي، جاء ليواسيني، ولكنني رفضت الحديث، معه فذهب مرة أخرى.

لاحظت عبير وقتها أنه كان حزيناً حقاً على وفاة سلمى، ولكن في الحقيقة لم يوجد أحد لم يحزن على سلمى؛ رغم سخافتها وتمردها لكنها كانت محبوبة جداً، لقد دمر موتها كل من يعرفها.

- ولكن لم تقولي لي كيف ماتت سلمى؟

- بالحزن (متلازمة القلب المكسور)

- كيف؟

- لم يكن لديها الرغبة في أن تعيش.

- لا أفهم.

- شرط أي علاج هو رغبة المريض في الشفاء، ولم يكن لسلمى هذه الرغبة؛ فقتلها الحزن.

- كيف قتلها؟

- استسلمت له حتى ماتت من كثرته؛ كانت أسيرة لهذا الحزن، لذلك يا أحمد أول سؤال قمت بسؤالك إياه هو هل كانت سارة سعيدة في حياتها معك، كنت أخاف أن تكون حزينة، ويقتلها الحزن مثل أختها، كنت أعرف أنها تتظاهر بالفرحة دوماً، وتعيش حياتها وكأنها سلمى.

- ماذا حدث لسارة بعد موت سلمى؟

- لم يكن عقلها الصغير يتفهم ما حدث، كان عمرها فقط أربعة عشر عاماً، وكانت متعلقة كثيراً بأختها، فبعد موتها أصحبت تنام طوال الوقت في غرفة أختها، وترتدي ملابسها، وتتكلم وكأنها سلمى، وأيضاً كانت تقرأ كل الكتب التي تحبها سلمى، ولكن في يوم وهي تعبث في أغراض سلمى وجدت المذكرات، وكنت قد نسيتُ أمرها، ولم أقم بإخفائها؛ فقرأت سارة المذكرات، وعرفت كل شيء،

وبالطبع كرهتني وكرهت عبير وماجد، واعتبرت أننا من قتلنا سلمى، وعندما دخلت الجامعة ذهبت لتعيش في منزل الطالبات؛ على الرغم من أنها ليست مغتربة، ولكن كانت تكره العيش معنا؛ لم يطمئن قلبي عليها إلا بعد زواجها منك. شعرت أنك شخص جيد، وسوف تكون سعيدة معك، ولكن بحكم أني أم كنت أتألم كل يوم لرفضها رؤيتي، كان أسعد أيام حياتي يوم زفافها؛ لأنها تركتنا نحضر؛ كنت أخاف أن ترفض وجودنا معها.

ابتسمت لها، ثم جاءت إحدى الممرضات تخبرنا أن سارة سوف تخرج الآن من العناية. ذهبنا سريعاً، كانت قلوبنا متشوقة لرؤيتها.

انتقلت سارة إلى الغرفة، وكنت بجوارها أنا والخالة نهى، كانت الخالة تقبل يديها وهي تقول: حمداً لله على سلامتك. ودموع الفرح تتساقط من عينيها.

بدأت سارة تتحدث ولكن ببطء من التعب، بجانب رعشة يديها، ووجهها الشاحب المائل للون الأصفر، لم تكن تتذكر أي شيء مما حدث، لأنها كانت في غيبوبة بعد الحادث؛ فبدأت تسألنا: أين انا؟ ماذا حدث لي ولماذا أنا هنا؟

أجبتها: لا تقلقي؛ حادث بسيط، والآن أنتِ بخير.

- لا أتذكر أني قمت بحادث.

قال لها الدكتور حسام ألّا ترهق نفسها بالتذكر إلى أن تتحسن حالتها؛ فلم يحاول أحد منا أنا والخالة نهى أن يروي أي شيء مما حدث في ذلك الوقت.

جاءت الخالة عبير من عند العم ماجد لتطمئن عليها، بعدما أقنعت عم ماجد أنه لا يستطيع أن يخرج الآن من غرفته ويذهب لسارة، وأنه مازال يحتاج للراحة بعض الوقت.

(٢٠)

سر سارة

بعد مرور أسبوع.. بدأت سارة في التحسن واستعادة قدرتها على الكلام، كانت دوماً عيناها ترفض النظر للخالة نهى والخالة عبير؛ لازالت لم تسامحهما على ما حدث لسلمى.

كنت كلما أري تجاهلها لحديثهما معها أقول في عقلي "ماذا بعد أن تعرف أن العم ماجد هو من تبرع لها؟! وأني عرفت كل شيء".

جاء الدكتور حسام وأخبرنا أن سارة بدأت في التحسن، وقريباً سوف تخرج من المستشفى، نظرت لي الخالة عبير وعيناها تقولان (حان الوقت لتفي بوعدك). ثم فجأة تحولت عين سارة، واتسع بؤبؤ عينها في اتجاه الباب، فنظرت خلفي وجدت العم ماجد أمامي يرتدي ملابس عادية، ليست ملابس المستشفى، ويظهر بشكل طبيعي غير متعب.

قبل أن يتحدث أحد منا تدخل هو، وقال:

- لقد جئت لأطمئن عليكِ يا سارة، أعرف أني تأخرت كثيراً، ولكن..

لم تجعله سارة يكمل حديثه، وقالت له:

- لا يهم، لم أكن أنتظر أن تأتي لزيارتي.

حزنت كثيراً على العم ماجد في ذلك الوقت، كانت عيناه تلمعان وهو ينظر لسارة، وكأنه يتمني أن يحتضنها؛ ولكن عين سارة تقول (لا أريد).

لم أستطع أن ألوم سارة، فهي لا تعرف أنه من قام بإنقاذ حياتها، ولذلك قررت أن الليلة سوف أخبرها بكل شيء.

كنت أنا من أقيم مع سارة في المستشفى، وعندما رحل العم ماجد والخالات، جلست مع سارة وأخبرتها أني أريد الحديث معها. جلست تسمعني وأنا كلامي

غير منظم، لم أقم بتحضير ما سوف أقول لها؛ لم أعرف كيف سوف أشرح لها ما حدث، ولكنها فاجأتني برد لم أتوقعه.

- أحمد، سأختصر أنا الطريق عليك، الطبيب أخبرك، أليس كذلك؟

- بماذا سوف يخبرني؟

- أنني لدي تليف في الكبد.

- لحظة.. أنتِ كنتِ تعرفين ولم تخبريني؟!

- لم أكن أريد أن تعيش معي هذا الوجع، أنا عرفت أني احتاج لأن يتبرع لي أحد بالكبد، ولم أكن لأطلب ذلك من أبي وأمي مهما حدث، ووجود شخص يتوافق مع فصيلة الدمي النادرة ويوافق على التبرع لي شيء شبه مستحيل، فلم أريدك أن تعرف وتتعذب معي.

-لماذا؟ أنتِ تعرفين أن هذا كان يمكن أن ينهي حياتك؟! ومن هذا الطبيب الحقير الذي تركك لا تخبرينني أنك مريضة؟

- دكتور علي، هو لم يخبرك، لكن كيف عرف..

- علي صديقي؟! هذا الحيوان! كيف يخفي عني أنك مريضة، وقد يحدث لكِ شيء، وأنتِ كيف لا تقولين لي؟ كيف تصمتين؟ أنتِ تعرفين أن هذا ما جعلك تفقدين الوعي وأنتِ تقودين السيارة؟ ماذا إن لم تأخذك السيدة التي رأتك على الطريق للمستشفى؟! وأنا؟! لم تفكري فيّ وأنتِ تتركين نفسك للموت كل يوم؟! هل تعرفين أن طوال الفترة الماضية كنت ألوم نفسي على حادثك هذا؟ كنت أتمنى لو أموت أنا وتعيشين أنتِ، كيف بهذه البساطة تقررين أن تفقدي حياتك؟!

- افهمني يا أحمد، معرفتك للحقيقة لم تكن لتفيد بشيء سوي أنك سوف تنتظر اليوم الذي سوف أرحل فيه.

- سارة، أنتِ أنانية.

- أنا أنانية يا أحمد؟!

- نعم، لم تفكري في، ماذا سوف يحدث لي إذا رحلتِ؟ كنت الفترة الماضية أموت كل يوم من هذه الفكرة.

- ولهذا السبب تحديداً لم أخبرك.

- كنتِ سوف تجعلينها مفاجأة؟ لقد مُت يا أحمد، هيا ابكِ على فراقي بدلاً من أن تبكي على انتظار فراقي، هذا ما أقنعك به عقلك؟

- أحمد، أنت لا تستطيع فهمي.

- تعرفين لماذا؟ لأنك لم تحاولي مرة واحدة أن تقولي لي أي شيء يجعلني أفهمك لقد حكمتِ عليّ مسبقاً أني لن أفهم. سوف أخبرك بشيء يا سارة، لقد عرفت كل شيء.

- ماذا تقصد بـ "عرفتُ كل شيء"؟

- وأنتِ في الغيبوبة أخبرني الطبيب أنك تحتاجين إلى متبرع، وبحثت عنه ووجدته، وقام بالتبرع لكِ، تعرفين من هو!

- من؟!

- العم ماجد.. والدك.

- كيف تسمح لنفسك أن تفعل ذلك؟

- هاها.. كيف أسمح لنفسي أن أنقذ حياة زوجتي؟! شيء غريب فعلاً.

- أنا لا أريد أن أعيش بجزء من جسد هذا الرجل، أنت لا تفهم.

- بل أفهم جيداً.. من أجل سلمى، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- ألم أقل لكِ أني عرفت كل شيء، لقد قرأت مذكرات سلمى، وعرفت كل شيء لم تخبريني به، عرفت أيضاً أنك تحبين الرسم أكثر من القراءة، وأنك كنتِ ترغبين بدخول كلية الفنون وليس التربية، وتريدين معرضاً وليس روضة أطفال، عرفت أنك كنتِ تعيشين بالنهار سلمى وبالليل سارة، وأنك تلومين كل شخص في عائلتك

على وفاة سلمى، تعرفين لماذا؟ لأنك لا تتكلمي، وكذلك لا تسمعي. لم تحاولي أن تتكلمي يوماً وتشاركيني ألمك، أنتِ كنتِ ستتسببين في فقدان حياتك دون أن تفكري فيما سوف يحدث لي؛ فقط لأنك تكرهين والديك، حاولي أن تسمعي منهم، لقد ترك العم ماجد الخالة عبير، وتركت الخالة نهى شريف، وندموا بعد موت سلمى، لقد عاقبهم الله بموتها، لماذا تعاقبينهم أنتِ أيضاً؟!

صرخت سارة في وجهي وقالت:

- لأنهم هم السبب في موتها، لم يكونا لنا يوم أب وأم، كانت الخالة عبير تفعل الاثنان، ثم اتضح أنها السبب في عدم قيامهما بدورهما تجاهنا، وفي النهاية ماذا حدث؟ ماتت أختي من الحزن، ماتت وتركتني، كانت كل شيء بالنسبة لي، لم أكن أحب أحداً في هذا العالم مثلها، لم تقم حتى بتوديعي قبل موتها، لم تفي بآخر وعد لي، كنت أتمنى لو أعيش لحظات قصيرة أخرى معها. هم من تسببوا في ذلك، كيف اسامحهم؟!

حاولت أن أهدأ مرة أخري وأنا أتكلم معها:

- انظري لي يا سارة، أنا الآن غاضب منك بشدة، سوف أقول لكِ ما فهمته بعد الحديث مع كل منهم، وبعد قراءة مذكرات أختك، وأيضاً من خلال معاشرتي لك. العم ماجد كان مذنباً في حقكم، وندم أشد الندم، لقد ماتت ابنته، والخالة نهى لم تكن تعرف أن سلمى تحب شريف، ولقد أحبته في وقت لم يكن لها أحد تتحدث معه، سلمى جُرحت من هذه الحقيقة، ولكن الخالة نهى لم يكن لها ذنب، ولقد ماتت ابنتها أيضاً الألم الذي تشعرين به، هما أيضاً يشعرون به، أما عن الخالة عبير فهي عاشت الكثير من الألم الذي كان يشبه ألم سلمى بالضبط، الفارق الوحيد أن سلمى قررت أن تستسلم، والخالة عبير أكملت من أجلكما؛ كانت تري فيكما بناتها التي لم تنجبهم.

جميعهم أخطأوا، وجميعهم ندموا وعوقبوا. ومن الظلم أن تعاقبيهم أنتِ أيضاً.

- نعم، ومن الظلم أن أُعاقَب معهم، كان موت سلمى عقاباً لهم، ولكن لمَ أعاقب أنا؟! ماذا فعلت لأعاقب؟!

-لم تفعلي شيئاً، لذلك يمكن أن تعتبريه ابتلاءً بدلاً من عقاب، ولكن قرارك بالاستسلام للمرض والموت هذا عقاب لي، ومثلما قلتِ الآن: ماذا فعلت أنا لأعاقب! تعرفين شيئاً يا سارة؟ لقد مات أبي وأمي وأنا صغير، كنت في مثل سنك عندما ماتت سلمى، وليس لدي إخوة، اهتم بي جدي، ثم مات بعد زواجنا مباشرةً، هل تتذكرين؟ وقتها كان يمكن أن أفعل مثلك وأنتظر الموت، ولكن اعتبرت أن وجودك في حياتي عوضاً لي، وقررت أن أعيش لكِ فقط، فلم يعد لدي سواكِ. أنتِ فقدتِ أختك، ولكن مازال والديك على قيد الحياة، عقابك لهما لن يفيد بشيء، تمتعي بوجودهم، واحمدي الله أنهم نادميْن، قد يعيش الإنسان ويموت وهو لا يري نفسه مخطئاً. فلا تكونين أنتِ مخطئة في المبالغة في العقاب. سوف أتركك تفكرين فيما قلتُ لك، وأذهب للبيت الآن، إذا احتاجتِ شيئاً يوجد الكثير من الممرضات، وداعاً.

****

وأنا في الطريق للبيت شعرت أني كنت قاسياً في كلامي مع سارة، ولكن عندما عرفت أنها كانت تعرف أنها مريضة ولم تخبرني شعرت بشيء من الخيانة، كيف كنتِ سوف تتركين نفسك تموتين، ولا تفكرين فيما قد يحدث لي دونك.

((الفصل الأخير))

التحرر من الأسر

سارة..

بعدما ذهب أحمد جلست أفكر في كل كلمة قالها لي، هل حقا أنا أنانية؟

لم أفكر قط بالطريقة التي قالها، وأني سوف أتركه وأجعله يُعاقَب مثلهم، في الحقيقة نعم، لم أكن أريد أن يتبرع لي أحد منهما، ولكن.. أنا أيضاً كنت أتمنى أن أموت، كنت أود الذهاب لسلمى بشدة، فراقها كان يعذبني كل ليلة، كنت أجلس ليلاً بعد نوم أحمد وأتذكر طفولتنا، وكيف لم نكن نفارق بعض ولا لحظة، إلى أن تغيرت سلمى فجأة، أصبحت متمردة وكلامها حاد، لم أكن أعرف سبب تصرفها هكذا مع الجميع، لكن لم أنزعج منها يوماً، حبي لها كان يجعلني أغفر لها أي كلمة جارحة تقولها.

لو كنت عرفت حقيقة أهلنا، كان ممكن أن أسامحهم، ولكن بعدما عرفت أن هذه الحقيقة هي من قتلتها، قدرتي على الغفران لم تعد موجودة.

أصبحت عيني لا تري سوي الجانب السيئ منهم، ولم يفكر عقلي في أي شيء سوي أن أختي ماتت، وبالطبع كان قلبي ينكسر إلى أجزاء صغيرة كل يوم، لا شيء كان يجعلني أهدأ سوي الرسم؛ أجلس كل ليلة وأنا أبكي، أرسم صورة لسلمى حتى أهدأ وأنا أتأمل ملامحها، وأذهب لأنام ثم أستيقظ وأعيش كأني سلمى.

أعرف أن أمي وأبي كانا يريان ذلك جنون، يريانني في حالة صدمة عصبية، لكن أنا كنت واعية جداً لما أفعل، كنت أقصد التحدث بطريقة سلمى، والعيش مثلها؛ ليأنس قلبي بوجودها، كان عقلي رافضاً ما أفعله، ويدرك أن هذا تمثيل، لكن كنت أرتاح في فعل ذلك، فمع الوقت تأقلم عقلي وصدق هذه الكذبة، صدقت أني أريد روضة أطفال وليس معرض لوحات، صدقت أني أحب القراءة أكثر من الرسم، صدقت أني "سلمى".

كنت مثل سلمى تماماً، فيما كانت تعيش في آخر أيامها "أسيرة.. متحررة"، مفتوح لها أبواب الحياة لتعيش، ولكن جرح الماضي يأسرها، لا تستطيع الاستمتاع بأي شيء، فالماضي دائماً حاضر. لذلك عندما عرفت أنني مريضة فرحت على عكس المتوقع، كنت أود الرحيل كي أكون بجانب سلمى.

أحياناً وأنا اشتاق لها كنت أشعر أني أريد أن أذهب إلى قبرها وأنام بجوارها؛ ثم أدركت أن الموت هو الحل الوحيد، ولكن أنا أجبن من أن أقوم بالانتحار. لذلك شعرت أن المرض نجاة من ألم الماضي الذي أعيشه كل ليلة.

لكن أحمد الآن جعل عقلي يفكر بشكل آخر، ما ذنبه في هذا؟! لقد أحبني وأنا في أسوأ حالاتي، لم ينفر يوماً من شخصيتي المتضاربة؛ نهاراً أضحك وأمزح وليلاً أبكي مثل طفل حديث الولادة، لم ينزعج من هذا. شخص آخر كان قد مل من صمتي وتركني، لكنه لم يفعل. نعم، الإجابة على السؤال أنا أنانية، هو لا يستحق هذا، كيف يكون جزاء حبه لي أن أجعله يعيش نفس الألم الذي أعيشه بسبب فراق أختي؟! سوف أعيش.. سوف أعيش من أجل أحمد، وسوف أبني معه حياة جديدة، سوف أتحرر من أسر الماضي، ولم أعد أسيرة بعد اليوم لازال في الحياة أشخاص نعيش من أجلهم.

هكذا كان يجب أن تفكر سلمى، كان يجب ألّا تستسلم وتعيش من أجلي، ولا تتركني أتألم من دونها، لن أفعل بأحمد نفس الشيء.

مر يومان، وجاء وقت خروجي من المستشفى، جاءت أمي والخالة عبير لأخذي، تعجبت لعدم وجود أحمد معهما، كنت متأكدة أنه سوف يأتي، فقلت لهما إني لن أذهب حتى يأتي، بالتأكيد الطريق مزدحم.

مر وقت طويل، وكان يجب أن أترك الغرفة لمريض آخر، ولكن أحمد لم يأتِ، وبعد إلحاح كبير من أمي وخالتي وافقت على الخروج، وأنا على باب المستشفى رأيت أحمد قد جاء، ومعه باقة ورد؛ ظهرت أخيراً ابتسامتي.

رغم حركتي البطيئة لكن حاولت أن أسرع باتجاهه، وضعت يدي حول عنقه وهمست في أذنيه: كنت متأكدة أنك سوف تأتي، آسفة يا أحمد، لن أجعلك تغضب مني مرة أخري، كنتَ محقاً في كل ما قلت.

فقال هو: إذا كنتِ تريدين أن أسامحك يجب أن تنفذي ما سوف أطلب منك.

- سوف أنفذ أي شيء تطلبه مني.

خرج أبي من سيارة أحمد ونظر لي مثل طفل يتمني السماح من أمه. فقال لي أحمد:

- لقد وعدت أباكِ وأمك وخالتك أن علاقتك بهم سوف تعود بعد أن تخرجي من المستشفى، وبالتأكيد لن تجعليني أبدو (عيّلاً) في نظرهم.

ضحكت من طريقة كلامه.

- وأيضاً أريد أن يكون هناك جد وجدة لأبنائنا.

- أي أبناء؟

- الذين سوف تنجيبنهم، أريد خمسة أطفال.

-خمسة؟!

- نعم، لن أتنازل عن خمسة أطفال.

ضحكنا نحن الاثنان، ثم ذهبت نحو أبي واحتضنته، وفي هذا الحضن تذكر عقلي الفترة التي كانت فيها سلمى في المستشفى، وكيف كان أبي يحاول التقرب مني، وهوّن عليّ غيابها وقتها. وأدركت أن وجودي بين عائلتي هو ما سوف يجعلني أشعر بوجود سلمى، ويجعل سلمى سعيدة لرؤيتي سعيدة.

*****

في يوم أخذني أحمد من البيت، وقال إننا سوف نذهب لمكان ما، ولم يخبرني ما هو هذا المكان إلى أن وصلنا. ثم نظرت لأجد أمامي مدينة الألعاب، فقلت له:

- ما هذا؟

- إنه الوعد الذي لم تستطع أن تفي به سلمى لك.

عيني كانت تملأها دموع الحزن والاشتياق، وفي نفس الوقت الفرح والسرور، ثم قلت بصوت مرتفع:

- لكن لا أستطيع اللعب.

- ولماذا؟!

- لأن أول طفل من الخمسة أطفال قد استقر داخلي.

النهاية

لمتابعة الكاتبة فرح راشد على الفيسبوك: Farah Rashed

/https://www.facebook.com/share/189e7H9BFf

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023